

الأسكندرية في عهد البطالمة والرومان

تأليف

زكى على

أسستاذ التاريخ القديم

بكلية الآداب . جامعة فاروق الأول



الاسكندر الاكبر

الأسكندرية في عهد البطالمة والرومان

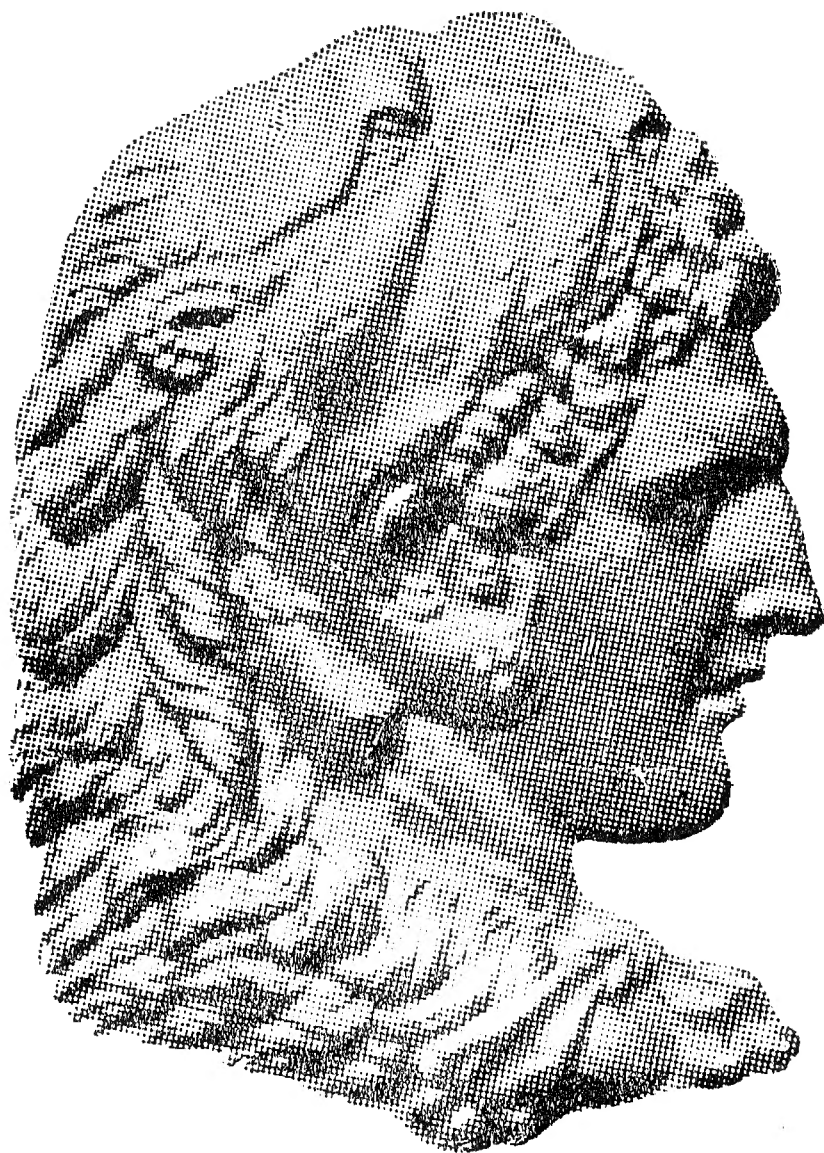
للاستاذ زكي على

إن قليلاً من المدن لقي من التمجيد والاشادة بالذكر مثل ما لقيته الاسكندرية القديمة ، فكان التمدح بها من الأحاديث المتعارف عليها وانبرى الكتاب القدماء يكيلون لها المدح ويحتفون بعظمتها وفخامة أبنيتها ويخلدون ذكرها على مر السنين ، ونحن وإن لم تكن لدينا معلومات وثيقة عما كانت عليه حالها في القرن الثالث قبل الميلاد إلا أن الطريقة التي بنيت بها والنطاق الواسع الذي كانت عليه وساطان ملوكها الأولين من البطالمة الذين اتخذوها عاصمة لامبراطوريتهم وحجهم للعظمة والفخامة وما عرف عنهم من التبذير والاسراف والوصف الخالد لبعض الأعياد العامة التي كان يقيمها بطليموس الثاني — كل هذا يدل على أن المدينة منذ نشأتها الأولى كانت لا تزال بحالها الذي وجدت عليه في عهد أغسطس عندما زارها سترابون الجغرافي فكان خير شاهد عيان، خلد لنا في كتابه السابع عشر من جغرافيته وصفا رائعا لأبنيتها ومعالمها، ولا يزال مصدراً مهماً في تعرف أحوالها الأولى ، ومن قبله زارها المؤرخ بوليبيوس في عهد بطليموس يورجتيديس الثاني وشاهد أحوال أهلها وكتب في كتابه الرابع والثلاثين وصفا لأهلها لا ينطوى على مدح خالص .

ولا ريب أن الأجانب الذين زاروا الاسكندرية في عهد البطالمة اعترافهم شعور الإعجاب والتقدير فانبروا يعبرون في مغالاة واطراء عما يحتلج نفوسهم من مشاعر ؛ فبهرت أبصارهم أهبة مبانيها العامة وفخامتها وشوارعها المستقيمة المتقاطعة في زوايا قائمة والتي كانت تخترق المدينة من أقصاها إلى أقصاها تحف بجوانبها صفوف لا عدد لها من الأعمدة والبوائك وبهرتهم رقعة مساحتها الشاسعة وسياجها الذي يحيط بها وعدد آثارها الخالدة وما اتسمت به من فخامة وعظمة كما استرعى أبصار زائريها في ذلك الحين احتشاد سكانها إلى حد الاكتظاظ وهم يتحدثون بمختلف اللغات والطرانات إلى درجة تسترعى الاسماع وتدعو إلى الدهشة .

تأسيس المدينة

ويرجع الفضل في تأسيس مدينة الاسكندرية إلى الاسكندر الأكبر فهو منشؤها — دخل مصر في خريف ٣٣٢ ق . م . زاحفا من الشرق ، يقود جيشه المظفر ، وقد أثلجت نصدور رجاله هزيمة الملك الفارسي العظيم دارا الثالث ، واستيلاؤهم على مدينة « صور » التي أتعبتهم واضطرتهم أن يضربوا عليهم الحصار — حط الاسكندر رحاله أول الأمر في ممفيس التي عرج عليها ودخلها ، وزار فيها معبد الاله يتاح . وكان قد انقضى بضعة سنين منذ استرد الفرس البلاد المصرية ، وكانت قد استقلت مدة قرن . ولم يجد الاسكندر أى صعوبة في إخضاع البلاد له ، وعده المصريون مخلصا لهم من حكم الفرس ، فتوج ملكا على البلاد في معبد الاله يتاح بممفيس . وكان من قبل بتقديمه التضحيات لآلهة البلاد المحلية وإقامة المباريات في الألعاب الرياضية ، وفنون الشعر والموسيقى على الطريقة الاغريقية ، قد خرج للناس في ثوب العامل على توثيق الروابط ، والجاد في التوفيق بين الشرق والغرب . قضى فصل الشتاء في مصر ، وفي خلال هذه الفترة زار معبد آمون فقول بالاجلال والتعظيم ، ونودى به ابنا للاله زيوس آمون ، وفي طريقه إلى هناك ركب فرع النيل الغربي أو الكانوبي حتى وصل إلى قرية صغيرة تسمى راقوده (Rhakotis) بالقرب من ساحل مصر الشمالى ، ويسكنها صيادو الأسماك ، وقد استطاع بعض علماء الآثار أن يتعرفوا بقايا مبان لميناء قديم في هذا المكان ، ولكن بعضا آخر ينسكرك عليهم هذا . والرأى القديم في شأن راقوده يقول أنها قرية قليلة الأهمية ، ومن دعاة ذلك العالم هوجارث (Hogarth) في مجلة الآثار المصرية (الجزء الثانى عام ١٩١٥) وتبعه كنيرون . ولكن الرأى الحديث أخذ يحيد عن ذلك الزعم ، ويرى في راقوده بلدة فرعونية مهمة ، وعاصمة لاقليم شامل لست عشرة بلدة أخرى . وقد أيدت الحفريات الحديثة صدق ذلك ، وأنها كانت حصنا أماميا وبلدة هامة في الاقليم الغربى الواقع على الحدود تجاه ليبيا منذ الأسرة الثانية عشرة ، وبالتحقيق منذ عصر الرعامسة — وتدل الأبنية القديمة في راقوده ومرفأها على انها كانت المنفذ الرئيسى بين مصر وممالك البحر المتوسط ، ومركز آتجاريا هاما مع بلاد الاغريق في عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين إذ أن المرفأ في هذا الجزء من الساحل الشمالى لمصر يكون أقرب وأسهل للاتصال بالعالم الاغريقى من الفرما التي كانت تقع على شاطئ الفرع البلوزى على مسافة عشرين ستاديا من البحر بحسب ما جاء في سترابون والتي جعلها قربها من فلسطين وسوريا عرضة للتأثر بسلطان الفرس ، ولعله كان لأهمية راقوده في العهد الفرعوى المتأخر وصلاتها الوثيقة بالعالم الاغريقى أثر في اختيار الاسكندر لهذا الموقع ليقم عليه مدينته الجديدة . وفي ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول بأن الاسكندرية ، مثلها مثل كثير من المدن الهيلينية والمؤسسات العمرانية التي تلتها لم تكن جسديتها كاملة ، وإنما هى بلدة قديمة أعيد تأسيسها وبنائها



الاسكندر الاكبر

و توسيعها على نطاق واسع تغيرت معه جميع معالمها القديمة . ولهذا رأى خصوم ينسكرون أهمية راقوده إذ يرون فيها قرية متواضعة .

ومهما يكن من شيء فإن ما كان يسترعى نظر الزائر لهذه البقعة في القرن الرابع قليل ، إذ كل ما هنالك شاطئ رملي منخفض تقع على مقربة منه قرية صغيرة بدت قليلة الأهمية ، يسكنها جماعات فقيرة من صيادى الأسماك ، وليس في هذا كله أية دلالة على ما كانت تحبوه الأقدار من عظمة لمدينة الاسكندرية المستقبلية ومباهج الحياة فيها - على هذا المكان وقع اختيار الاسكندر الذى قدر رسالته لنشر الثقافة والحضارة الهيلينية في بلاد الشرق فقرر أن يؤسس مدينته عليه وقد صارت الاسكندرية من أعظم بلاد العالم وأصبح دورها في العصر الهيليني الثانى أو بالأحرى في عصر البطلمة هو دور النهضة والانشاء ولم يقدر لتلك المدينة أن ترى في العصور التالية أعظم منه نهضة علمية وفكرية وقد أصبحت فيه بلا ريب أولى مدن العالم وكان يسميها الرومان « بالاسكندرية الواقعة على تخوم مصر » (Alexandria ad Aegyptum) وكأما تزهو بنفسها وبموقعها على تلك الحافة الشمالية ، ويرجع الفضل في ذلك كله إلى مؤسسها الذى كان من أفذاذ رجالات التاريخ ، ولكن فريقا من المؤرخين الذين يولعون بالجدل والنقد ولا يطيب لهم الأمر إلا بعد أن يفندوا ما تواتر عليه العرف يقولون أن أهمية مؤسسة الاسكندر كانت نتيجة أسباب بعيدة كل البعد عن تقدير الاسكندر وذكائه ، ولا ريب أن حقيقة الأمر وسط بين هذين الرأيين المتطرفين ، وعلى الرغم مما عرف عن الاسكندر من اندفاع وتهور ومضاء خارق للعادة فإنه كان يتصف بالمقدرة على إصدار الأحكام في هدوء وروية وصفاء الذهن بدرجة لم يجارها فيها إلا قليل ؛ ويمكن أن نقول بحق أن الاسكندر اختار هذا الموقع لمدينته الجديدة تحذوه عدة أسباب ، وربما كان متأثرا كما هو الاعتقاد السائد حديثا ، بما وجدته من تشابه بين هذا الموقع وموقع مدينته صور التى أراد للمنشآت الجديدة أن تبلغ ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية ، على أن الاسكندرية كانت ذات مزايا حقيقية لها قيمتها ؛ كان انشاء الموانى العظيمة المعروفة في العصور الهيلينية لا يتم إلا بعد القيام بأعمال كثيرة واسعة النطاق ولكن تكوين الساحل الشمالى الغربى لمصر ووجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطئ أثار في نفس الاسكندر فكرة القيام بهذه الأعمال بل سهل تنفيذها ، وكان وجود بحيرة مريوط خلف هذا الموقع واتصالها بالنيل أتاح فرصة وجود ميناء عذب المياه سهل الاتصال من كلا جانبي البحر والنهر ، ذلك إلى أن نظام التيارات المائية في شرق البحر المتوسط يعرض الموانى الساحلية ثمة لأن تسد بالرواسب أما الاسكندرية فلا تعثرها هذه الشائبة ، ومن المحتمل أن يكون اليونانيون الساكنون في مدينة نقراطيس (١) قد اطلعوا الاسكندر على هذه الحقيقة الجغرافية ثم لعل هناك سببا آخر له طابع

١ - نقراطيس - مدينة اغريقية أسست في عهد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين على الفرع الكانوبي للنيل وموقعها الآن بضع قرى هي نقراش وكوم جعيف ونيبره وغيرها في تخوم مركز إيتاى البارود ، وكانت مدينة اغريقية صميمة وتوفرت لها كل مظاهر الحضارة الاغريقية وعاش فيها الاغريق على طريقتهم ووفق أساليب الحياة السياسية والاجتماعية المألوف لهم في بلادهم الأصلية .

سياسي فراقوده بلدة متواضعة ليس لها مجد تالد وإذا فلا يخشى أن تصطدم المؤسسة الهيكلية الجديدة التي تقوم على انقاضها بأي تقاليد أو نظم موروثه فيها بل ويرجى لها تقدم في ظل الحضارة والثقافة الهيكلية غير هياية أو وجلة من وطأة تقاليد وطنية قديمة .

وفوق ذلك فإن تأسيس الاسكندرية جاء نتيجة طبيعية لحملة الاسكندر العامة على الشرق، فبلاد الأغريق خرجت لغزو آسيا كيما تفرض عليها عاداتها ودينها ولغتها وأصبحت الهيكلية غير محصورة في نطاق بحر إيجه وجزائر بحر الأرخبيل بل أخذت في التغلغل في الشرق البعيد فلم تعد أثينا قادرة على أن تبقى عاصمة للعالم الجديد الممتد من شواطئ الهند والخليج الفارسي تحتاه تجارة الفرس وبلاد العرب والقوافل اللبية والمراكب الفينيقية ؛ فكان على الاسكندر أن يختار عاصمة جديدة ومرفأ يتسع لهذه المتاجر ويكون خليقا بمملكته العالمية ، وكان الاسكندر بغزوه بلاد الشرق المترامية الأطراف يعتبر نفسه ملكا شرقيا وخليفة للملوك الفرس العظام وكان ينوى أن يربط تحت لوائه وسلطانه أثينا وبابل وبلاد الأغريق وآسيا المتأغرقة ؛ وعلى ذلك وجد من الضروري أن يؤسس مدينة تكون خليفة بعاصمة هذا الملك العريض ، فيكون موقعها الفذ وسيلة لتحقيق هذا الاتحاد المنشود فاختار الاسكندرية كيما تقوم بهذا الدور ؛ وكانت مؤسسته في مركز وسيط تقع في وسط البحر الأبيض الهليني وعلى مسافة متساوية تقريبا من بلاد الأغريق وآسيا الصغرى وسوريا وتصل إليها عن طريق البحر وبحيرة مريوط تجارة ذات شقين فمن الشمال انسابت تجارتها الى موانئ كل من البحرين الأدرياني والأسود ومن الجنوب اتصلت عن طريق النيل وخليج العرب بمجاهل أفريقيا وأقاصى آسيا فهي إذا ميناء مثالية تفد إليها المتاجر من كل صوب في تلك الامبراطورية الشاسعة .

وأخيرا كانت الاسكندرية مؤسسة جديدة لا تنتمي الى أى شعب ولا الى أى مملكة ولا يتسبب عن قيامها استفزاز لغيره مدينة أخرى مناهضة وفيها كان يلتقي الوافدون من أقاصى البلاد المختلفة أغريقية أو متأغرقة من آسيا وأوربا ، وفي هذه البوطة تختلط هذه الشعوب فلا تلبث أن تصبح عنصراً واحداً وتصبح المدينة في الوقت نفسه مركزاً تلتقي فيه ثلاث قارات وموطنا لكل هذه الشعوب .

ولا ريب أن الاسكندر كان ينوى أن تحل مؤسسته الجديدة محل مدينة صور التي اتعبته في أثناء حصارها ، ولكن قيل ان آراءه في هذا الشأن قد تغيرت ، وانه لو عمر لأعاد «صور» سيرتها الأولى ، وفي الحقيقة كان في وفاة مؤسس الاسكندرية ضمان لمستقبل مدينة الاسكندرية في التفوق وبلوغ المنزلة الممتازة ، ومهما يكن إدراك الاسكندر وطموحه الى توحيد الشرق والغرب فانه الى سنة ٣٣١ ق . م . كان لا يزال ملكا على مقدونيا وقائدا أعلى لبلاد اليونان وبطلا لأوربا ، ناصراً لها على آسيا ولكن كلها اتسعت آفاق فتوحه شرقا أخذ يشعر بأنه أصبح خليفة الملك الفارسي العظيم وان بلاد اليونان ومقدونيا أصبحتا جزءا صغيراً من املاكة الواسعة ، وعلى ذلك ظهر له ان ميناء يتصل مباشرة بأملأكة الاسيوية يكون أنفع له من ميناء بعيد كالاكندرية ، ولكن الحمى القائلة

التي أصابته في بلاد ما بين النهرين اخرجت تقرير ذلك المصير من يده، ولما مات في سنة ٣٢٣ ق. م. كانت المدينة الجديدة لا يزال مقدرأ لها ان تخلف «صور» في التفوق التجارى في شرق البحر المتوسط

الاسكندرية في عصر البطالمة

وبموت الاسكندر انهار ذلك البناء الشامخ الذى تعب في إقامته وتداعت أركانه ومع ذلك فان التنبؤات التى قالت بعظمة الاسكندرية المستقبلية لم يثبت خطأها وبطلانها ، وعلى الرغم من أن الاسكندرية عجزت عن أن تصل إلى فرض سيطرتها وسلطانها على العالم القديم الا أن مزايا موقعها الفذ بقيت حقيقة ثابتة ، وبما ساعدها على تقدمها إلى حد كبير قوة دولة البطالمة واتساع سلطانهم فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد فى شرق البحر المتوسط ، هذا إلى ضعف المالك المجاورة فكانت الاسكندرية مدينة تحميها طبيعتها وقوة البطالمة ضد كل أصناف العدوان وصروف الحدثان فلم يصادف تقدمها السريع شىء من تلك الانقلابات العنيفة التى كانت سببا فى تخريب آسيا ؛ وفى الحروب التى وقعت بين أخلاف الاسكندر اثبتت الحوادث صدق فراسة بطليموس الأول الذى اختار مصر لتكون نصيبه فى ذلك الارث الواسع وقنع به فلما ساءت العلاقات بينه وبين برديكاس ، أحد أخلاف الاسكندر ، وشن عليه برديكاس حربا وعجز جيش بطليموس عن أن يصد الغزاة قامت ريح صرصر عاتية بعرقلة جهود العدو وصد النيل الغزاة فنشنت شملهم وعلى ذلك صمدت الاسكندرية لمثل تلك الظروف وبقيت عاصمة ملك البطالمة ومركزا للعلم إذ وجد فيها الذكاء الاغريق أرضا خصبة وبيئة جديدة فازدهر وأينع وأثمر ثماراً طيبة أتى منها الانسان أكله فى كل حين .

التوفيق فى اختيار مصر لتكون من نصيب بطليموس

ومصر مملكة ذات حدود طبيعية يكتنفها البحر المتوسط والبحر الاحمر ويجرى فيها النيل فجعلتها هذه الظروف الطبيعية معدة أحسن لإعداد لأن تصير مملكة قوية مهيبة الجانب ، آمنة مطمئنة من غائلة العدوان ويكاد يكون غزوها واجتيازها أمراً صعب المنال ، يحميها نيلها المبارك الذى سماه أيسقراطيس « حائطا خالداً » فصدت هذه العوائق الطبيعية العدو الزاحف من الخارج وضمنت اضطراب التقدم فى الداخل ، وكانت سهولة المواصلات الداخلية كفيلة باخضاع السكان للحكومة القائمة وطاعتهم لها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا على الحضارة الاغريقية يغترفون منها فى أول هذا العهد وتركوا تقاليدهم القديمة المتوارثة فى معاقلها فى صعيد مصر ومعابدها القديمة وأخذوا يحاكون الاغريق فى أساليبهم ونظمهم المدنية والاجتماعية ولم يكن لدى المصريين سبب يأسفون معه على ضياع سيطرة الفرس على بلادهم وهم الذين ساموهم سوء العذاب وحرقوا آلهتهم فرحبوا بزوال ذلك العهد . وفى بدء الغزو المقدونى كانت طبقة المحاربين من الوطنيين وهم الذين عرفوا باسم (Machimoi) قد أوشكت على التفرق والتفكك بل انها كانت قد ضاعت معالمها ، وبزوالها فانتفى في عضد المقاومة لحكم الأجنبي الغاصب ، وبفضل الأساليب السياسية

البارعة من إدارية وقضائية واقتصادية استطاع البطالملة أن يستحوذوا على السكينة من المصريين ويسيطروا عليهم وكان يؤيد بطليموس جيش يبلغ عدده نحو مائتي ألف رجل ويتألف أغلبه من الاغريق واشتاتهم الذين وفدوا إلى مصر زرافات ووحدانا استجابة لدعوة بطليموسها الذي أجزل لهم العطاء وقد سجل شاعر البلاط البطلمى ثيوكريتس (Theocritus) فى إحدى قصائده الراعية ما انطوت عليه مشاعر جند الاغريق الذين انضموا فى خدمة البطالملة وهرعوا إلى مصر وحجوا إلى الاسكندرية التى بهرتهم مباهجها . وكان المقدونيون يتولون أرفع المناصب فى الجيش وفى الادارة وسيطر هذا الجيش شيئا فشيئا على الشرطة والمحاكم الجنائية وجزء من الادارة المدنية ؛ وفوق ذلك فانه كان فى خدمة بطليموس جمع غفير من الموظفين الطامعين فى المال والمتزلفين الذين يسارعون بتقديم فروض الولاء والطاعة إلى الملك وموظفى البلاط ؛ وكان الملك يتمتع بايراد سنوى بعضه عيى ، يقدر بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وأغلبه من مختلف الضرائب التى ذكر أغلبها الالم (فليكن Wilcken) فى ثبت يروع الانسان ويهوله كثرتها وتنوعها وتناولها جميع مظاهر النشاط الانسانى وجهود المصريين فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة .

أفلم يكن بطليموس بكل هذه الموارد والثروات فى مركز يساعده على أن يركز جهوده وموارد بلاده فى ابناء عاصمته الجديدة وادخال التحسينات عليها والعمل على أن تبسدى فى ثوب يتسق مع ذلك الغنى الطائل الذى عرف به ملك البطالملة ؟ فزادت مباهجها حتى عدت مفخرة البطالملة وبفضل حسن استخدام هذه الموارد ألم يكن فى استطاعة بطليموس أن يحيط نفسه بحاشية من العلماء والشعراء وفى الظلال الوارفة لهذا الحكم المطلق الهادىء ألم يكن بطليموس واثقا من مقدرته على أن يعيد بعث الآداب والفنون فى عاصمته الجديدة بعد أن كانت فى أيام آخر ثمار الديمقراطية الجالحة الهوجاء فى أثينا وغيرها من مدن الاغريق ؟ ولم تتخاف الاسكندرية عما قدر لها فقد استقر فيها اذ ذاك أناس على جانب كبير من النشاط أشربوا روح التجديد وتميزوا بمقدرة تجارية خاصة ، وكانت هذه المدينة تشرف على بلد خصوبته مضرب الأمثال ويسكنه شعب ذكى نشيط ويتصل بالطرق التى تؤدى إلى البحر الأحمر والممالك التى تنتج التوابل وله ميناء أصبح بعد اتمام الأعمال الهندسية اللازمة يساوى أفضل الموانى فى العالم القديم — تلك هى الاسكندرية التى كسب لها أن تكون العاصمة التجارية للشرق .

كان بطليموس الأول بن لاجوس يبلغ من العمر نحو أربعين سنة عند اقتسام امبراطورية الاسكندريين قواده فاختص بمصر فى هذا التوزيع وحكمها بوصفه ساتراپا (Satrap) أو واليا يطبق سياسة عرفها العالم « كورنمان » بالسياسة الساتراپية (Die Satrapenpolitik) وتختلف هذه فى غايتها ومآربها عن السياسة التى نهج عليها البطالملة بعد أن تلقب أولهم بلقب ملك سنة ٣٠٥ ق.م. وحذا حذوه اخلافه من أبنائه فى ذلك ؛ وكان بطليموس هذا زعيما قديرا وسياسيا بارعا حصيفا يجمع بين الاعتداد بالرأى والدأب فى السعى وبين المداورة والمصانعة وهو إذ يسعى لتحقيق غرض واحد لا يتحول



الإله سيرابيس

عنه كان يظهر العناد حينما ويتخذ سبلا مختلفة للوصول لصلاته وكان يعتمد إلى اتخاذ القوة والحرب أداة لتحقيق المآرب التي لا يستطيع الوصول إليها بالطرق السلمية الدبلوماسية وكان يحرص دائما على كسب فتوح ثابتة ولا تعنيه مظاهر العظمة والرفخفة وحب الظهور ومواكب النصر وهي بنت ساعته وكان فوق كل هذا يجمع بين الأناة والصبر والعناية بالمسائل الدقيقة الصغيرة وبين الاهتمام بالمسائل الجلية، وهكذا كان هذا المحدث النعمة يجمع في شخصه كل الصفات اللازمة لمؤسس امبراطورية وملك عريض كملك البطالمة .

كان بطليموس الأول حسن التقدير بعيد النظر قدر أن « عصفورا في اليد خير من اثنين على الشجرة » فلم يشأ أن ينازع القواد الآخرين فيمن يتولى منصب نائب الملك في حكم الامبراطورية كلها بل قنع بالاستيلاء على مصر الغنية وعمل على أن ينقل إليها جثة الفاتح العظيم وهي تعرف باسم سوما (Soma) ثم حرفت إلى سيم (Sema) فلما ظهر بهذا الحرز الثمين يمم شطر مصر تاركا زملاءه يفضون خلافاتهم في آسيا واتخذ مقره ممفيس حيث دفنت جثة الاسكندر أولا . وبعد ذلك ، وليس معروفا على سبيل التحقيق تاريخ ذلك « نقل بطليموس عاصمة الملك الى الاسكندرية ولعله خطأ تلك الخطوة بعد أن كان بناؤها قد اشرف على النهاية أو اكتمل بعض مظاهرها على الأقل وبعد تحول في اتجاه سياسته .

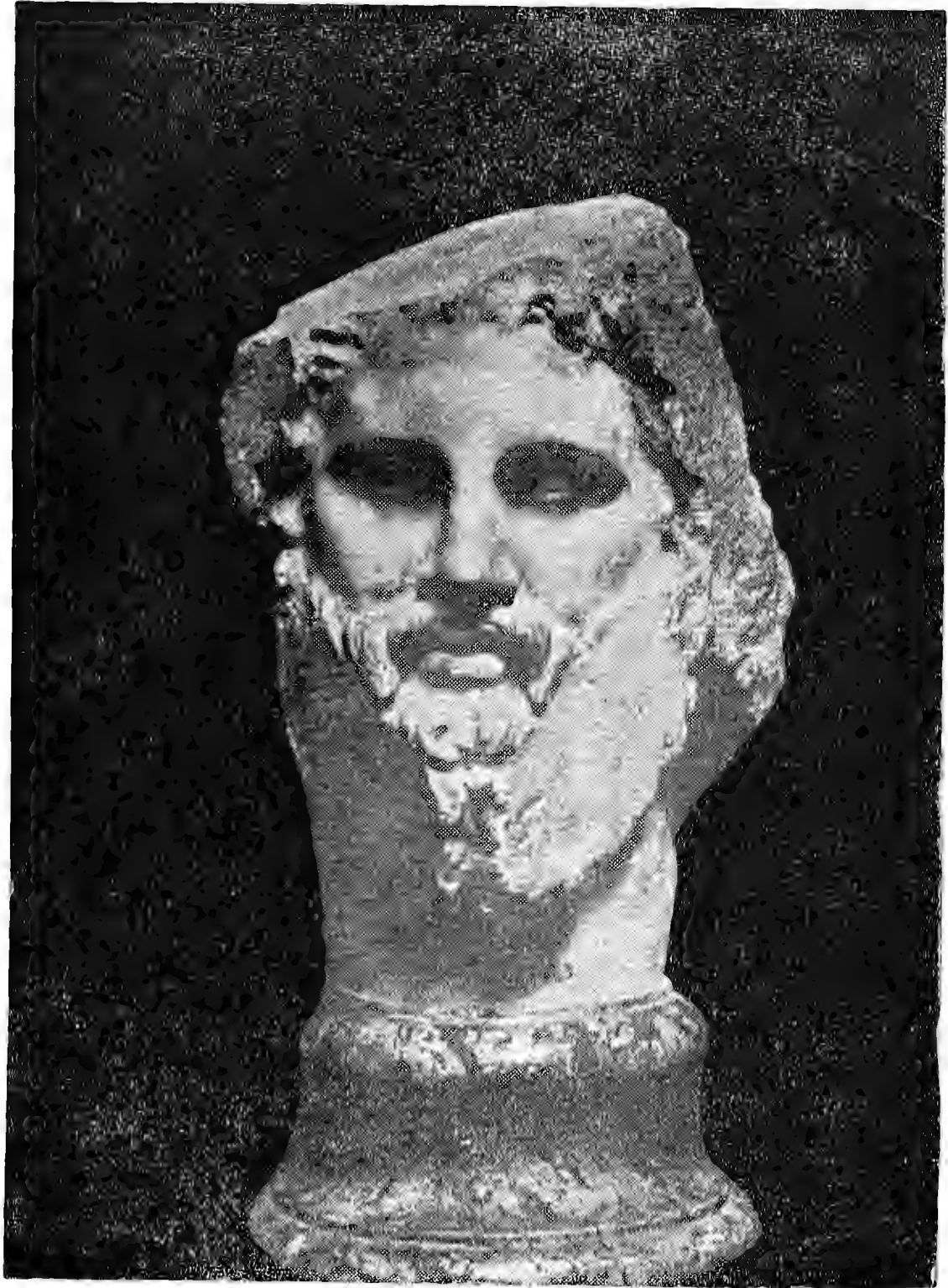
ويظهر أنه سار في أول الأمر على خطة الاسكندر ونهجه وهي السياسة التي تسكني « بالساترية » فكان يشجع اختلاط اليونانيين بالمصريين ، وبولى المصريين بعض الوظائف الرئيسية ثم بدا له فغير هذه السياسة وأحل محلها مع المصريين سياسة الفاتح مع المهزومين وهي السياسة التي احتذاها أخلافه وساروا فيها على طريقته إلى أن بدا ضعف ظاهر على ملوك أسرة البطالمة فاضطروا أن ينجسوا نهجا آخر فقدموا ترضيات وإعفاءات (Philanthropa) لرعاياهم من المصريين . ولعل نقل مقر الحكومة إلى الاسكندرية كان العنوان الظاهر الدال على تغيير مجرى السياسة القديمة ، ولا بد أن بعيد النظر من المصريين استطاعوا إدراك كنه ذلك وما يتضمنه من مغزى .

عبادة سيرابيس

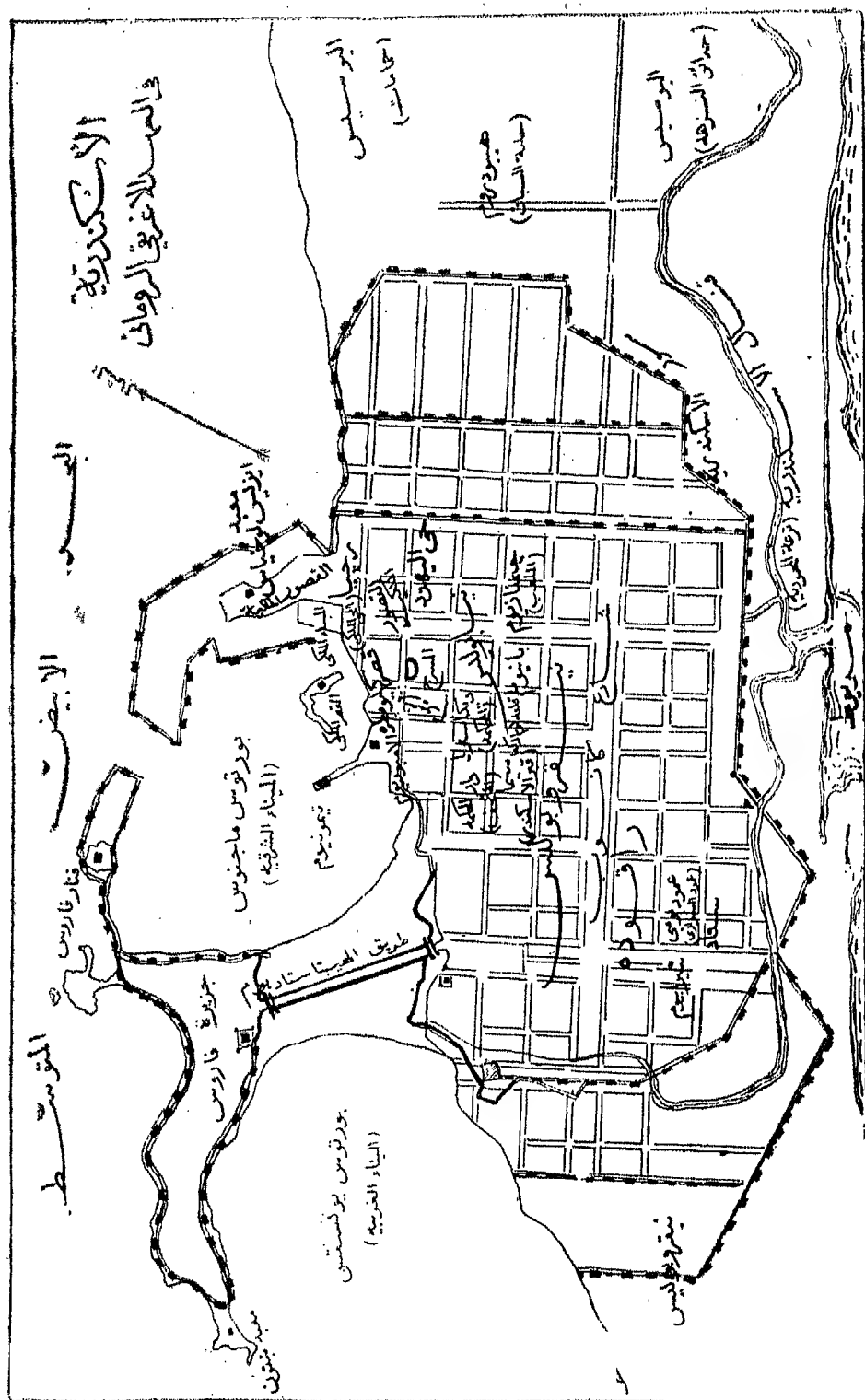
ولقد تلا ذلك اتخاذ إجراءات أخرى ترمى إلى نفس الغاية ، فعمد إلى الديانة يتلس السبيل لتوثيق العلاقة بين المصريين والاعريق . وكان الاسكندر قد استبق الحوادث فعمد إلى إظهار رغبته في تكوين علاقات الصداقة مع المصريين بتأسيسه معبداً للآلهة (إيزيس) في الاسكندرية فلما جاء بطليموس وجد أن الديانة المشتركة هي خير وسيلة لتوثيق الروابط بين الأجناس والشعوب ، وأن الاعريق والمصريين سوف يعتبرون الاسكندرية وطنهم لو أنها أصبحت مركزاً لعبادة آلهتهم ، وفوق ذلك فإن توحيد العبادات يكون من شأنه توحيد الشعبين وتقبل القوانين والنظم الجديدة بقبول حسن . فجعل للبلاد معبوداً جديداً هو سيرابيس (Serapis) وقد ظهرت عبادته أولاً في ممفيس ملتقى اليونان

والمصريين ، وكان هذا الاله الجديد هو الاله الرسمي في امبراطورية بطلميوس ، ثم أصبح مركز هذه العبادة الرسمي مدينة الاسكندرية حيث أخذت تصطبغ بصفة رسمية بصبغة هيلينية وتوضع لها التكاليد والطقوس الهيلينية ، وبنى في الاسكندرية حرم مقدس لهذا الاله الجديد في الجزء الجنوبي الغربي من الاسكندرية في الحى القديم المعروف براقوده ، وهو الحى الذى كان مأهولا بالسكان قبل تأسيس المدينة ، واستمر كذلك في عهد البطالمة ، فكان أكثر الأحياء سكانا وأشدّها ازدحاما . وفى هذا الهيكل أمر بطلميوس بإقامة تمثال ضخم للإله سيرابيس وهو إله العالم السفلى جلبه من سينوبى على البحر الاسود . ولجلبه قصة طريفة ذكرها مانيتون وأشار إليها المؤرخ الرومانى تاسيتس (Tacitus) فى الجزء الرابع من تاريخه . وتتلخص فى أن الملك البطلمى بعث يطلب نقل تمثال هذا الإله من سينوبى وكان اضخم تمثال له وقد عول ملك سينوبى على تسليم هذا التمثال متأثرا بالأحلام والنذر التى طافت به وعند ما أعدت العدة لنقل التمثال من ضريحه تجمع السكان وقد بدت عليهم أمارات الغضب وعم الصخب وهددوا بالخلولة دون نقل التمثال منعاً لارتكاب هذا الأثم المبين ويذمهم على هذا الحال واذا بالتمثال ينتقل من تلقاء نفسه من موضعه الى ظهر المركب كما لو أن الآلهة نفسها قد اتخذت من الاسكندرية لها مقراً — وقد أقيم بعد ذلك السراپيوم (١) (Serapeum) على مرتفع من الارض حيث كان يقوم ضريح متواضع لذلك المعبد وكان يؤدى اليه سلم عال يبلغ عدد درجاته مائة وقد أحيط به الأروقة والابهاء الفسيحة ذات الأعمدة وحل بالتماثيل وألحقت به مكتبة حتى أصبح اثرأ خالداً من آثار الاسكندرية بلغ حسداً من الجمال جعل بعض كتاب الرومان يشيدون بذكره فيما بعد ويقولون عنه فى سذاجة وبساطة ان الانسان ليحار فى وصفه وان البكالت لتعجز عن أن توفيه حقه . وقد انتشرت عبادة سيرابيس فى انحاء البلاد فأقيمت السراپيومات على نسقه فى عواصم الأقاليم المصرية بل وفى القرى المتواضعة فكان ببلدة فيلادلفيا بالفيوم معبد لسيرابيس الى جوار مختلف المعابد الأخرى حرصت الجالية اليونانية على إقامته ببلدة فيلادلفيا وهى قرية نموذجية ابتناها أبولونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) وسماها باسم مليكة تيمنا ، وخططت هذه البلدة على نسق مدينة الاسكندرية مستطيلة الشكل كرقعة الشطرنج ذات شوارع طويلة مستقيمة متقاطعة فى زوايا قائمة فجاءت القرية النموذجية تحكى للناس فيما بعد بعض تاريخ الاسكندرية وما خفى من معالمها . ولكى يبارك بطلميوس الثانى مدينة الاسكندرية ويكسبها هالة من القدسية نقل اليها جثة الاسكندر التى احتواها قبر جميل أصبح يعرف باسم « سيما » (Sema) وما لبث أن أصبح مركز عبادة عظيمة يشرف عليها كاهن سنوى وبقي أثرأ يؤمه الحجاج والزائرون عدة قرون فيما بعد للتبرك والوفاء بالنذور ولم يعرف الآن موضعه على سبيل التحقيق وهل هو بحوف كوم الدكة فى موضع جامع النبى دانيال أم هو عند السراپيوم براقودة أم فى مكان

(١) توجد بعض آثار السراپيوم حول العمود المعروف الآن بعمود السوارى .



رأس من الرخام الأبيض تمثل الإله ديوس (وتوجد بالمتحف اليوناني بالاسكندرية)



آخر بالقبور الملكية فيما وراء رأس لوخيلاس (Lochias) الى الداخل ويشير سترابون الى موقع قبر الاسكندر ضمن المباني الملكية في نفس ذلك الجانب من المدينة الذي تقع فيه دار الحكمة وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين بالمدينة وقد وردت عبارة ذكرها كاتب روائى يسمى اخيليس تاتيوس (Achilles Tatius) يشير فيها الى « مكان كان يعرف باسم الاسكندر » وهو عند تقاطع هذين الشارعين اللذين كانت تحلبها بوائك وأعمدة أقيمت على جوانبها ويغلب على الظن أن ذلك المكان كان الموقع الذى يقوم عليه قبر الاسكندر . وسوف يبقى هذا المكان سرا مكنونا إلى أن تكشف الصدف أو الحفائر والمخطوطات عن البيئة التى تحسم هذا الموضوع .

الاسكندرية قاعدة ملك البطالمة

وعند ما جعل بطليموس الأول الاسكندرية قاعدة ملكه كانت قد خرجت من طور الارتباك الذى يضاهى عادة المنشآت الجديدة ، ولكن كان يعوزها مع ذلك عمل كثير لتحويل تلك الكشبان الرملية والأرض القاحلة وقرية راقودة المتراصة إلى مدينة هيلينية عظيمة ، وقد قام المهندس دينوقراطيس (Deinocrates) بتخطيط المدينة على الطريقة المألوفة عند اليونان بشوارعها المستقيمة المتقاطعة فى زوايا قائمة ، وهو نظام محبب إلى اليونان فى تخطيط المدن والبلدان ، وقد بنيت المدينة على رقعة غير فسيحة وهى المكان المحصور بين بحيرة مريوط والميناء البحرى وكانت البحيرة متصلة بالنيل وهو متصل بالبحر الأحمر بقناة أتمها بطليموس فيلادلفوس كما كانت البحيرة متصلة بالميناء وعلى ذلك كانت تستخدم ميناء عذب المياه وقد بنى جسريصل جزيرة فاروس بالساحل طوله نحو سبع فراسخ ويسمى هيبستاديوم (Heptastadium) وبفضل إقامة بعض المنشآت والأبنية الأخرى على الجانب الشرقى تكون ميناء بحرئ عظيم هادئ شرقى هذا الجسر ، وفى الغرب منه تكون ميناء آخر سى بميناء السلام (Eunostos) والميناء الغربى هو الوحيد الذى يستعمل حتى الآن ، وكانت المدينة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب وكان طول المدينة يفوق عرضها كثيرا ، ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عظيم هو قصبة المدينة ، عرضه يزيد على مائة قدم ويقطعه فى وسط المدينة شارع آخر تمتد من الشمال إلى الجنوب وكانت الشوارع الأخرى موازية لهذين الشارعين وتسمى باسماء خاصة من أفراد الأسرة المالكة ، وفى نهايتى ذلك الشارع الرئيسى يقوم بابان عظيمان يسمى الشرقى منها فى العصور المتأخرة باب الشمس والغربى يسمى باب القمر وكان على جانبي هذا الطريق البوائك والعقود ذات أعمدة تحمى المسار من قيظ الشمس وكانت المدينة مقسمة إلى خمسة أحياء سميت باسم أحرف الهجاء الأخرى وكان حى الدال (الدلتا) مخصصا لليهود وكان الحى الوطنى منها فى الغرب من المدينة.

وقد ظهر منذ نشأة الاسكندرية انها ستكون كالبوثة تلتقى فيها عناصر مختلفة من شعوب الشرق والغرب من بلاد الاغريق وآسيا وممالك لم تكن معروفة من قبل بل من مصر نفسها وتقوم بنصيبها فى بناء حضارة جديدة ممتزجة من ثقافات وحضارات شعوب مختلفة ، وكان هناك بالطبع المقدونيون

الذين لم يكونوا معتبرين حتى عصر متأخر في عداد المواطنين الاحرار ، ولعلمهم لم يكونوا كذلك منذ نشأة الاسكندرية وانما كانوا الطبقة الخاصة الممتازة من السكان المحتفظين بامتيازاتهم وكان اعترافهم بتولية الملك الجديد على البلاد أمراً له خطره وصفته الرسمية الضرورية . أما جمهور الاحرار فكانوا يونانيين ولا ريب ، وقد يدخل في جملتهم عناصر من أجناس غير يونانية واصطبغت بصبغة هيلينية ، ولا بد أنه كان بالاسكندرية لهجات كثيرة مختلفة تسمع رطانتها في الشوارع والاسواق ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤلفة من هذه الرطانات كانت تعرف باللهجة المشتركة (Koine) وهى اللغة التى تميز بها العصر الهليني الثانى وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الأخرى .

وكان يوجد غير هؤلاء الاحرار المستكمل الحقوق المدنية ، فى وقت متأخر على الأقل ، يونانيون آخرون لا يتمتعون بالحرية المدنية الخاصة بمدينة الاسكندرية كما كان يوجد منذ تأسيس المدينة جالية من اليهود زادت أعدادهم مع توالى الزمن حتى أصبحوا كثرة لها منزلتها واهميتها ولكنهم لم يكونوا من المواطنين الاحرار بالمعنى الاصطلاحي وانما كانوا جزءا من الجاليات الأجنبية التى كان لها نظامها الخاص بها من مجلس للشيوخ ومن موظفين مخصوصين وادارات خاصة بتسجيل العقود لها سجلاتها وكانت فوق ذلك تتمتع بتطبيق قوانينها الخاصة بها فى بعض الاحيان ، ومن الجاليات التى كانت بالاسكندرية الفريجيون وينتسبون إلى ولاية فريجيا (Phrygia) بآسيا الصغرى ثم الفرس وهم سلالة الذين استوطنوا مصر قبل حكم البطلمة ولم يكن لهم عصبية ولا شوكة ولا كان عنصرهم أساسيا فى المدينة ثم يلى هؤلاء جميعا المصريون وهم من الذين كانوا يسكنون فى راقوده والذين سكنوا كانوبوس (Canopus) ومحليا الآن أبو قير ، وكان الاسكندر قد أمرهم بالتحول إلى المدينة الجديدة وكانوا محرومين من التمتع بالحرية المدنية ، وان كان بعضهم يحصل على هذه الحرية من وقت لآخر ، ولم يكن الزواج بين اليونانيين والمصريين معترفا به قانونا ، لكنه كان يقع كثيرا وكان الاختلاط بين الثقافتين واقتباس اليونانيين من عادات المصريين وعقائدهم ودياناتهم أمرا لا مفر منه ، وما وافت نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان الشعب السكندري مؤلفا من أجناس مختلطة ولم ينقض وقت طويل حتى أصبح العنصر الغالب من السكان غير يونانى ولا مقدونى وصار خليطا لانظام له ، له أشباهه وأمثاله فى مدن الشرق الهليني ولا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندريين فى هذا العصر المتأخر بالاعجاب فكانوا فى نظرهم متقلبين سريعى التأثير ، عنيدون متمردون يحبون العمل ويميلون مع ذلك إلى اللهو ، وهم ثرثارون ، فيهم طلاقة اللسان ولذعه قليلو الاحترام للادبان ومع ذلك كانوا يظهرون « تعصبا دينيا شديدا فى بعض الاحيان » وكانوا دائما معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها فى الهياج والشغب على الحسكام فكانوا مدة قرون شوكة فى جانب السلطات التى كانت مسئولة عن حفظ النظام .

أما دستور المدينة فليست لدينا عنه معلومات وثيقة ولسنا نعرف هل كان بمدينة الاسكندرية .

مجلس شورى (Boulé) وهو العلامة المميزة الدالة على تمتع المدينة بحكومة ذاتية ومن المؤكد أنه لم يكن بالمدينة مجلس شورى في عهد الرومان حتى عهد الامبراطور سبتيوس سيوريوس (Severus Septimius) ولما كان لا يزال محل خلاف بين المؤرخين ان كان بالمدينة مجلس شورى في عهد أغسطس ثم الغى على يديه وعلى الجملة تتلخص النظرية التي يمكن قبولها في أن الاسكندر منح المدينة مجلسا للشورى ثم حرمها إياه أحسد ملوك البطلمية ولعل ذلك كان عقب حرب من الحروب الأهلية التي ناصرت فيها مدينة الاسكندرية الفريق الخاسر وبما لاشك فيه أنه كان يوجد بها في عهد بطليموس فيلادلفوس مجلس للأحرار يسمى إكليسيا (Ecclesia) متمتع بالطبع بسلطة حقيقية قليلة وكان هناك موظفون عموميون عاديون نذكر من بينهم الجناز يارك (Gymnasiarch) وهو رئيس المنتدى الثقافي ثم إكسيجيتس (Exegetes) وهو موظف كبير أشبه بعمدة المدينة أو رئيس بلديتها وله اختصاص واسع يتناول الاحتفاظ بسجل للمواطنين الأحرار ثم يوثنيارك (Euthenarch) وهو القائم على شئون التكوين ثم كوزميتيس (Cosmetes) وهو رئيس جماعة الشبان الأحرار الذين كان يطلق عليهم ايفيبي (Ephebi) وكان تدوين الأسم في سجل جماعة الشبان الأحرار هو الوسيلة للحصول على الحرية المدنية وكان الحصول على شهادة مكتوبة بذلك بمثابة وثيقة قيمة كشهادة الميلاد في العصور الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ عدة وثائق من هذا النوع ترجع احداها إلى العهد الروماني وتشتمل على تاريخ الانضمام إلى جماعة السكان الأحرار واسم القبيلة والحى وعمر صاحبها واسم زوجته وعمرها إلى غير ذلك من الأوصاف والتفاصيل . وكانت الحرية المدنية التي تكسب صاحبها صفات ذات قيمة جوهرية مادية واجتماعية مطموعا فيها كثيرا . ولذلك كان التدليس في الانساب إلى جماعة الشبان الأحرار ممن لا يؤهلهم حق مولدهم للتمتع بهذا الشرف أمرا كثيرا الوقوع . وكانت جماعة الأحرار في المدينة تنقسم إلى قبائل وهذه تنقسم إلى أقسام تنزل في أحياء خاصة أو محلات تسمى الواحدة ديم (Deme) .

وكانت للاسكندرية محاكمها الخاصة وقوانينها التي انفردت بها ، وهذه القوانين كان معترفا بها حتى في المحاكم التابعة للملك والتي تطبق القانون اليوناني العام ، وكان الأساس فيها لحد كبير قائما على القانون المستعمل في اتيك ببلاد الاغريق مضافا إليها تعديلات مستمدة في بعض الأحيان من غير نظم اتيك ، وفي بعض أخرى روعى فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة ، وكانت تلك القوانين تسكن من وقت لآخر بما يصدره الأحرار في المدينة من قرارات ، وكان السكان المقيمون فيها يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر ، وإلى جانب الموظفين الذين ينتخبهم الأحرار في المدينة كل سنة كان هناك موظفون ملسكيون ، وعلى ذلك كانت المدينة بصفتها مقرا للملك وعاصمة للامبراطورية البطلمية ذات مركز عجيب إذا قورنت بتلك المدن المتمتعة بالاستقلال الذائق في آسيا الصغرى .



المنارة (كما كانت في عهد البطالة)

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر وفي عهد النشاط والتجديد من حكم بطليموس الأول وابنه بطليموس الثاني نمت المدينة بسرعة فائقة الحد في الجمال والبهاء ، فبُدت على جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح في أبهى حلة وهى أول الأبنية التى من هذا النوع حتى عدت إحدى عجائب الدنيا ، وضع تصميمها المهندس سوستراتوس (Sostratus) السكندى واحتفل بافتتاحها في أول عهد بطليموس الثاني ودشنت ووهبت لبطليموس الأول وزوجته وبوركت باسم الآلهين المخلصين (Theoi Soteres) وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين متراً وكان يشع منها ضوء قوى يرى من مسافة ثلاثين ميلاً في البحر ويظهر أنها كانت تحتوى بالإضافة إلى ذلك على شيء أشبه بمنظار معظم لعله كان يدار بواسطة مرآيا كاسرة للأشعة .

وكان القصر الملكى فى الجانب الشرقى من الميناء الشرقى ، وإذ أن الملوك المتعاقبين كانوا يضيفون أبنية جديدة إليه أصبح على توالى الزمان حياً كاملاً قائماً بذاته ، وفى نفس هذا الحى كانت توجد دار الحكمة أو الأكاديمية أو المحفل الجامعى إن صح هذا التعبير (Museum) موطن تأسوع أرباب الفن (Muses) وبها المكتبة المشهورة وإلى الغرب قليلاً بنى فيما بعد معبد سى بالقيصرى أو قيصر يوم (Caesareum) بدأت فى بنائه الملكة كليوباترة السابعة المشهورة تكريماً لزوجها انطونيوس ثم اكمل بعد فتح الرومان لمصر تكريماً للإمبراطور أغسطس . وقد وصفه المؤرخ اليهودى فيلون (Philo) فى منتصف القرن الثانى فقال « لا يوجد فى العالم بأسره مثل هذا الحرم المقدس المعروف باسم سيبياستيوم (Sebasteum) وهو معبد قيصر حامى البحارة تبدو معالمه واضحة جلية فى مدخل الميناء ولا يخطئه الانسان لعظم حجمه ولا يجمده من حيث غناه بالعطايا والهبات والنذور وتحيط به الصور والتماثيل من فضة وذهب وعلى ساحته الفسيحة أقيمت الدهاليز والممر المسقوفة والمكتبات وحجرات خاصة بالرجال وخلوات للعبادة ومدخل فى مقدمه أقيم على شكل بوابة وتحيط به بعد ذلك ساحات فسيحة غير مسقوفة وفى الحقيقة أنه زين على أفخم صورة تبعث الأمل فى السلامة والنجاة فى نفوس أولئك الذين يرحلون عن المدينة وأولئك الذين يرسمون على شاطئها » .



بطليموس الثانى
فى زهرة شبابه

وكان من الأبنية الأخرى الشهيرة ضريح الاسكندر ومقبرة البطالمة المتعاقبين وملعب الجناز يوم أودار الندوة الثقافية (Gymnasium) ومعبد السرايوم (Serapeum) الذى كان ضريحاً للاله سيراييس (Serapis) الذى ابتدعه البطالمة لتكون عبادته ، كما سبق أن بينا ، حلقة اتصال بين الاغريق والمصريين ولذلك كان من المناسب أن يشيد معبده فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى . وفوق ذلك كان فى الاسكندرية حدائق وبساتين كثيرة لأن الاسكندرانيين كانوا يشاركون المصريين فى حبهم للازهار ، وكان منظر بائعى الازهار وطلاقات الريحان مألوفاً فى شوارع المدينة . ويظهر أن بطليموس الثانى أعاد

تسمية شوارع المدينة بطريقة نظامية تكريماً لأخته المتوفاة ارسينوى الثانية (Arsinoe II) وهي زوجته فاطلق اسمها على عدة شوارع ملقبا اياها بألقاب آلهة اليونانيين .

دار الحكمة والمكتبة

ولم ينس البطلمة حرصهم على مظاهر العظمة المادية لعاصمة ملكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها فقد اشتهرت قبل كل شيء بدار الحكمة أو الأكاديمية ودار الكتب ، ويظهر أن الأولى كانت في بادئ أمرها معبداً للتاسوع الإلهي ويمثله آلهة تسعة تحمي العلوم والفنون المختلفة وترعاها ولها رئيس هو سادن هذه الآلهة ولكنها كانت في الحقيقة جامعة عظيمة أو كلية قريبة الشبه جداً في تكوينها ونظمها بأحدى كليات جامعتي اكسفورد أو كامبردج في عصرنا الحديث ، كان العلماء من مختلف الاجناس والانواع يلتقون فيها وتمنحهم الحكومة مرتبات من خزانتها الملكية وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الدار الحكيمة من الموارد المعتادة استطاع علماؤها أن يتوفروا على اعمال البحث والتنقيب لأن التعليم والتدريس لم يكن عملاً إجبارياً فيها؛ وقد ساهم البطلمة الأول بقسط وافر في تأسيس هذه الدار وتقديم العون لها وتحديثهم رغبة أكيدة في النهوض بالعلوم وتشجيع الأدب الأغريق في الاسكندرية ، فكان بطليموس الأول نفسه من رجال الأدب، ومن آثاره الأدبية وصف لخمالات الاسكندر وقد أحاط نفسه بجاشية من العلماء والفلاسفة فبعث يدعو من جانبه العلماء من شتى الجهات وكان يستهويهم بشتى الأساليب فخطوا بمودته وكان سخياً نحو هذه الشخصيات الفذة من الشعراء والفلاسفة وعلماء الرياضة والنحو بقدر ما كان لين العريكة

ولم يكن استهواء العلماء الى الاسكندرية بالأمر الكافي إذ لابد من الاحتفاظ بهم وتهيئة الجو الصالح لمن كانوا يحيطون بالملك من ذوى المواهب وقد حضروا الى مصر ضيوفاً مؤقتين تلبية لنداء الملك الذى جذبهم إليه بكرمه وسخائه وقد يرحلون عن الاسكندرية مرة أخرى من غير أن يتركوا أثراً باقياً يدل على إقامتهم فيها ما لم يصبحوا مشغوفين بعمل ذى صبغة عامة وتستهيهم بعض المغريات القوية وقد حرص الملك على أن يقدم لهؤلاء العلماء الأعلام الضمان الكافي بأنهم سوف يلقون في الاسكندرية رفقاءهم وزملاءهم الذين يستمتعون بوجودهم وانهم سوف يجدون ما يلزمهم من الكتب والفرص وما يحتاجون إليه من فسحة في الوقت لمتابعة دراساتهم ، هذا الى ما يسبغه ملك مستنير من جود وعطف وعندئذ أخذ الجميع يرحلون الى تلك السكبة التى كانت تنتظر وفادتهم .

وكان ملك مصر غيوراً على تأييد هذه النهضة الأدبية خشية أن يسبقه غيره من الملوك في هذا المضمار في عصر كان فيه أكثر الملوك بعدا عن الاغريقية وامعانا في الاعجمية سباقاً في البذل والسخاء لتشجيع العلماء والأدباء فكان الملوك السلوقيين وملوك برجاموم في آسيا الصغرى دور الحكمة والمكتبات التى تزخر بالعلماء فهل كان في وسع بطليموس أن يغفل ناحية فيها بهجة وبهاء في نظر الاغريق فلا يحتضن العلماء والأدباء من غير أن تتعرض هيئته للضياع ؟ إنه سارع الى

تأسيس دار الحكمة ودار الكتب فكانتا سياقتين في مضمار العلوم والفنون وبرزتا زميلتين بفضل ما أسبغه الملك عليهما من عون وتشجيع. أما من يستحق الفخر من البطلمة الأولين بنسبه انشاء هاتين المؤسستين اليه وهل هو بطليموس الأول (سوتر) أم بطليموس الثاني (فيلادلفوس) فإنه من المستحيل علينا أن نقطع في هذا الأمر برأى حاسم إذ أن النصوص القديمة قد تضاربت في أقوالها ويميل بعض المحدثين من العلماء إلى تأييد القول بأنه كان بطليموس الثاني .

لقد أَوْضَحْنَا المشاعر التي جالت بخاطر بطليموس الأول وحفزته إلى تأسيس المكتبة ولكن هذا العمل لا يمكن أن يتم في يوم وليلة وكان من أولى جهوده في هذا الصدد اقتناء كثير من الأصول الخطية لأشهر المؤلفات إما بالشراء من أصحابها سواء كانوا أفراداً أم هيئات مدناً أم ملوكاً وبعض هؤلاء لم يكن في الكثير الغالب راغباً في بيعها فكان بطليموس إذا مضطراً أن ينسخ بعض صور كانت تكلفه أموالاً باهظة ، ولقد عمد الملك البطلمي إلى كثير من الأساليب والحيل في سبيل الحصول على الكتب النادرة ، هذا إلى أن بطليموس الأول كان في أثناء الجزء الأول من حكمه مشغولاً عن تلك النواحي الثقافية بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه ونظرائه الأقوياء فكان ينتقل من ميدان لآخر تارة مدافعاً وتارة مهاجماً فهو حيناً في قبرنيه وبرقة وحيناً آخر في رودس أو قبرص وقد نجده بعد ذلك في سوريا أو ليشيا الواقعة في آسيا الصغرى وعلى ذلك لم تتح له الظروف ما يلزم من الفراغ أو فسحة من الوقت للنهوض بذلك المشروع وما نظن أنه في أول الأمر وجد من المال ما يتطلبه لتنفيذه أما في الشق الثاني من حياته فكان أكثر هدوءاً واستقراراً بعد أن أقام ملكه على أسس ثابتة ودعائم قوية فكان في وسعه أن يكرس جهوده في كثير من السخاء للنشآت السلية وصادف في ذلك الوقت (عام ٢٩٩ ق.م.) أن كان ديمتريوس الفاليري (Demetrius Phalerius) الفيلسوف قد نفى من أثينا فلجأ إلى رحاب بطليموس سوتر كماً يؤويه؛ وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وشهرة عالمية وكان يحيط بكل ما في استطاعة البشر أن يدركه فكتب وصنف في كل موضوع يمكن تصوُّره في تاريخ وسياسة وخطابة وأخلاق ونحو ، وكان يعالج اسمي الموضوعات وأكثرها دقة وصعوبة فلجأ ديمتريوس الفاليري إلى مصر أكرم بطليموس وفادته ورحب به وانتفع بعلمه وذهنه الوقاد بأن وكل إليه الإشراف على المكتبة ولا يمكن أن يكون قد أسند إليه وظيفة رسمية شبيهة بتلك التي تولّاها مدير المكتبة وأمتاؤها الذين خلفوه فالمكتبة لم يكن لها وجود حتى ذلك الوقت ولم يكن هناك شخص أقدر على تنظيمها من ديمتريوس هذا، وبناءً على مشورته اشترى بطليموس كتباً في كل فن وإذا صدقنا ما جاء في مختلف المصادر القديمة عن محتوياتها فإنها كانت تضم ما لا يقل عن ٢٠٠.٠٠٠ مجلد في نهاية حكم بطليموس سوتر وكان ديمتريوس يقدر أن يصل هذا العدد إلى ٥٠٠.٠٠٠ نسخة ولكن هذا الحلم لم يتحقق في عهده فبطليموس الثاني كان يشاك في إخلاص ديمتريوس لما أسداه من نصيح للملك بطليموس سوتر في أخريات أيامه بالأحرى الأبناء السكبار من تولى العرش من أجل تفضيل الابن الأصغر ولكن الظروف كانت مؤاتية لبطليموس فيلادلفوس فتولى العرش ونفى ديمتريوس إلى حيث

مات في منفاه ؛ وفي أثناء حكم فيلادلفوس الذي كان طويلا وناجحا لم يكف الملك عن شراء الكتب من البلاد المجاورة وبخاصة من رودس وأثينا، وعند موته تضاعف عدد الكتب، وفي تقرير رسمي رفعه أمين دار الكتب المسمى كاليماكوس (Callimachus) ذكر فيه أن دار الحكمة تحتوي على ٤٩٠.٠٠٠ مجلد مشترك وذلك بخلاف النسخ المكررة في المكتبة الكبرى؛ وبعد أن بلغ اتساعها مبلغا عظيما وتضخمت أعدادها أسست مكتبة ثانية أقل أهمية في السرايوم حيث وضعت الكتب التي تقل أهميتها والنسخ البديلة وكانت المكتبة الصغرى في السرايوم تسمى بالبنت تميزا لها عن الأم الكبرى وتحتوي على ٤٢.٨٠٠ مجلد لعل أغلبها من النسخ المكررة، وقد حمل بطليموس الثالث اللواء بعد أبيه وتابع السياسة التي رسمها له ولم يضمن بصرف أى مبلغ فى سبيل جمع أندر الكتب ونقلها إلى الاسكندرية وقيل أنه أصدر أمرا يقضى بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطئ الاسكندرية بما قد يكون معهم من الكتب وأن يبعث بها إلى دار الكتب ويتسلم أصحابها بدلا عنها نسخا رسمية، ولا يد أنه فى عهده زادت أعداد الكتب القيمة، ولسنا نعرف مبلغ التراخي فى هذه السياسة فى العهود التى تلت حكم يورجيتيس الأول وبخاصة فى آخر أيام أسرة البطالمة؛ ومهما يكن من أمر فانه فى الوقت الذى حدث فيه حريق الكتب فى الاسكندرية فى عهد يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. كانت بدار الكتب الكبرى والصغرى بالسرايوم نحو ٧٠٠.٠٠٠ مجلد ولما آل الأمر إلى انطونيوس أراد أن يعوض ما خسره الاسكندرية من كتب فى هذا الحريق فنح كليون بآخرة السابعة نحو ٢٠٠.٠٠٠ مجلد من مكتبة برجاموم وهى مكتبة لا تقل كفاية ووفاء عن مكتبة الاسكندرية. واستمرت مكتبة الاسكندرية فى العهد الرومانى تفاخر بمحتوياتها التى كانت تعد بمئات الألوف من اللغات والمجلدات. ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وإنما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الأخرى وأنه لمن حديث الخرافة أن يقال أن الترجمة السبعينية للعهد القديم أو التوراة كانت بأمر بطليموس الثانى، والحق أنها صدرت تدريجيا كما يشتفع بها جمهور الاسكندرية الذين اصطغخوا بطابع هيلينى وكانوا أعرف باللغة الاغريقية منهم بلغتهم الأصلية.

موقع دار الحكمة والمكتبة من الاسكندرية

أما موقع دار الحكمة فإن من الصعب تحديده بالدقة، وقد يساعد الوصف الذى جاء فى جغرافية سترابون (الكتاب السابع عشر) على تحديد هذا الموقع فى محيط لا يمكن أن يكون خارج نطاقه؛ وبحسب ما جاء فى سترابون كانت هناك سلسلة من المباني الملكية التى شيدتها البطالمة فى حى المدينة المحصور بين رأس لوخياس (Lochias) فى الشرق وبين الملعب فى الغرب، وكانت هذه الأبنية الملكية ممتدة على طول الميناء الكبير، وفى آخر عصر البطالمة أقيم بناء القيصريوم فيما وراء هذه الأبنية الملكية، ثم كان إلى ذلك سوق المدينة ومستودعات البضائع وأحواض السفن لترميم المراكب، وهذه كانت تمتد حتى رصيف الهيبتاستاديوم ذى السبع فراسخ، وعلى ذلك فالمباني الملكية التى كانت دار الحكمة جزءا منها بحسب ما جاء فى سترابون كانت كلها متقاربة بعضها من بعض. وإذا فُوق

دار الحكمة إما أن يكون على ساحل الميناء الكبير نفسه بين الملعب ورأس لوخياس وإما أن يكون في الصف الخلفي من الابنية مباشرة ، وهذا ينفي القول بوقوعها في وسط المدينة تماماً أو فيما وراء الشارع الكانوني ، كما تسرب الظن بذلك الى بعض الحديثين ، اذ من المستبعد أن تكون دار الحكمة واقعة على مسافة بعيدة من الابنية الملكية أو في الجانب الآخر من الشارع الكانوني الذي كان بسبب اتساعه يفصل المدينة الى شقين ، ولما كانت الابنية الملكية في مجموعها تشغل جزءاً من مسطح مثلث قائم الزاوية فإن الخط الذي يمثل رصيف الميناء يكون وتر ذلك المثلث والشارعان الرئيسيان بالمدينة يمثلان ضلعيه الآخرين ، ومبنى دار الحكمة والمكتبة كان بالتأكيد أقرب الى وتر ذلك المثلث منه الى رأسه عند النقطة التي يتقاطع عندها الشارعان الرئيسيان وهي مركز مدينة الاسكندرية. ولما كان طول رصيف الميناء اذا قيس من داخل رأس لوخياس الى الملعب يقدر بنحو سبعة أمتار فإن دار الحكمة قد تقع على هذا الخط على مقربة من الملعب ومن شاطئ البحر ، ولا يمكن أن تكون دار الحكمة والمكتبة — اذا صح أن الأخيرة كانت تمثل أحد مباني دار الحكمة كما هو الغالب على الظن — بمبنى بعيد عن الملعب ولا أن تكون واقعة في المكان الذي أقيمت فيه المخازن وأحواض الميناء وأرصفتها ، حقيقة أن المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) ذكر أن أحواض الميناء « ومخازن الغلال ومستودعات الكتب » قد التهمت النيران نتيجة للحريق الذي اشتعل في المراكب الراسية في الميناء في اثناء الموقعة بين يوليوس قيصر وبين أخيلاس قائد جيوش بطليموس الصغير ، ولكن تلك المخازن التي أشار اليها ذلك الكاتب لا يمكن أن تكون سوى المخازن التي أشار اليها سترابون في كتابه السابع عشر عندما تحدث عن الحريق الذي اشتعل في هذه الانحاء في أثناء حرب الاسكندرية التي خاضها يوليوس قيصر ، وأنه لمن المستبعد أن تكون مخازن الكتب هذه هي بعينها مكتبة الاسكندرية المشهورة ، ويغلب على الظن انها كانت مجموعة من الكتب أودعت مؤقتاً بأحواض السفن أو كانت مكدسة على سبيل التخزين في المنازل القريبة المجاورة أكلتها النيران عندما اشتعلت في ذلك الجزء من المدينة ، ولعل قيصر كان ينوي أن ينقلها الى روماني سنحت الفرصة . وأنه لمن البعيد أن نصدق القول بأن المكتبة كانت واقعة على مقربة من الترسانة ؛ واننا نكون متمشين مع طبيعة الأشياء إذا قلنا ان المكتبة المشهورة كانت جزءاً من دار الحكمة ؛ وفي قول يوليوس قيصر نفسه في الكتاب المنسوب اليه وهو يصف حرب الاسكندرية ما يلي بعض الضوء إذ تعرض لمباني المدينة وطبوغرافيتها فقال في الفصل الأول « وذلك ان الاسكندرية تكاد تكون آمنة من الحرائق إذ أن مبانيها خالية من العقود الخشبية وهي مزودة بالحوائط الضخمة والسقف المعقود والأقنية ، وسقفها مبنية من قطع الأحجار أو هي عبارة عن تبايلة مستوية السطح » . واعتماداً على هذه البيئة التي يسوقها يوليوس قيصر يمكن القول بأن الابنية الضخمة ذات الروعة والفخامة في الاسكندرية كانت لا تعتمد على الأخشاب ومسقوفة بأسطح قوامها الحجر وهي بذلك

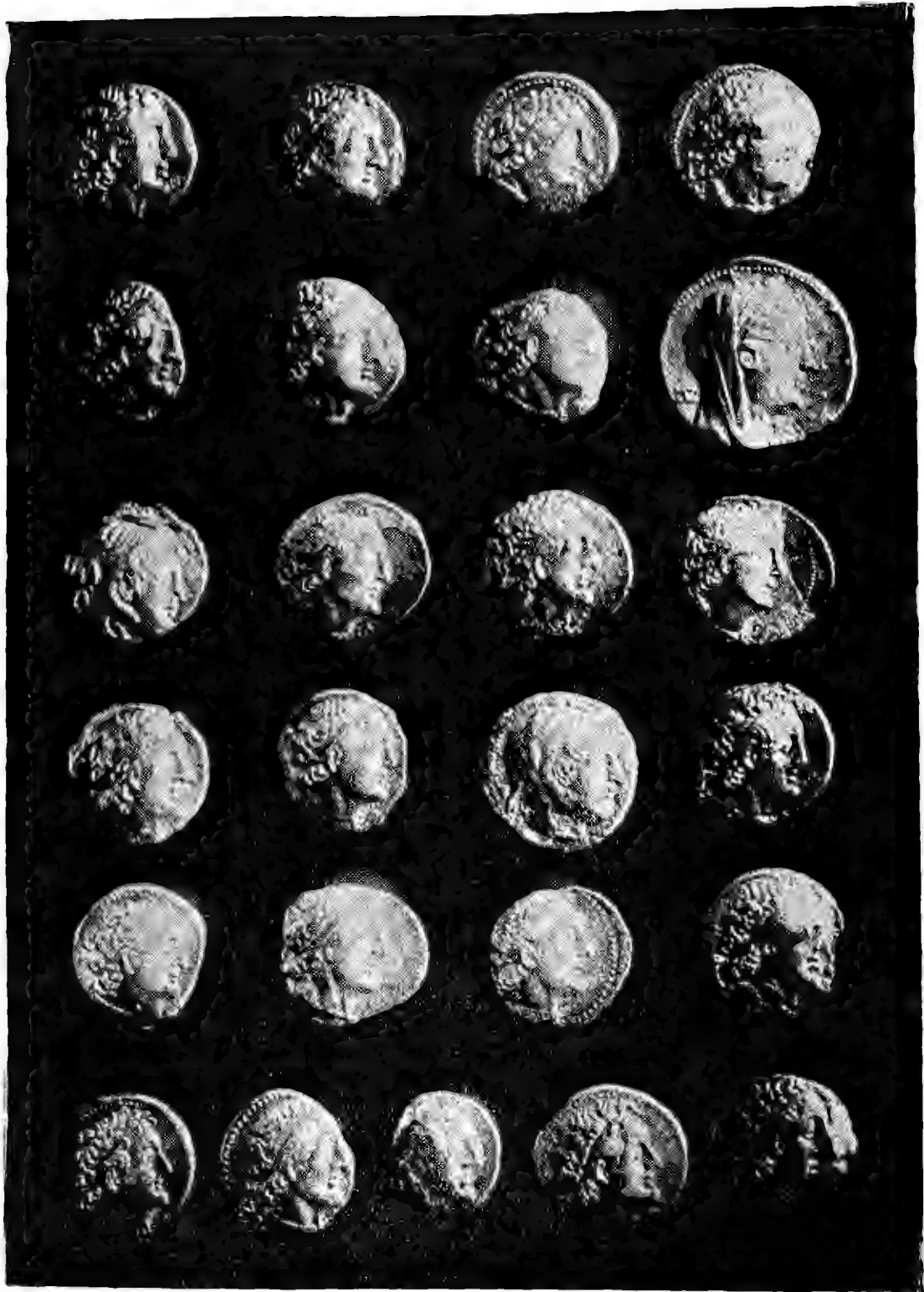
غير قابلة للاحتراق . فدار الحكمة والمكتبة كانتا إذآ آمنتين من التهام تلك النيران التي أتت على المخازن ومستودع البضائع والمواد المقدسة في الترسانات .

وكانت أبنية دار الحكمة محاطة بالأفنية والساحات والمداشى والدهاليز والأروقة تظللها الاشجار، وعلى كلا الجانبين كانت هناك ساحة غير مسقوفة وبجزة بمقاعد وفيها يلتقي اعضاء دار الحكمة لتأدية عملهم وللمناقشة في الامور الهامة وكانت هذه الساحة تستخدم لغرضين وهما الدرس والبحث ثم عقد الاجتماعات التي تجرى فيها مناقشات عامة والى الخلف من هذه الساحة كان يوجد ما يسمى بالبيت (Oikos) الذي كان بمثابة حجرة المائدة وقد وصف سترابون هذا البناء الرئيسى وأشار الى غيره من الأبنية الشاسعة التي كانت ملحقة به والى تلك الأبهاء المتقاطعة والمتنزعات التي كان يجمع فيها فيلادلفوس مختلف الحيوانات الغريبة وحديقة النباتات النادرة وبالجملة فانه في هذا المحيط كان يجتمع كل شيء يثير في النفس حب البحث العلمى ويثبث النشاط واذا استطعنا أن نتصور تلك المجموعه من المباني الواسعه بأروقتها الفخمة وأعمدتها الرشيقة وقبابها العالية وما كان يجرى فى داخلها من حياة حافلة بالنشاط العلمى لأولئك العلماء الذين كانوا ينزلون ضيوفا عليها ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بمنأى عن ضوضاء المدينة وجلبتها ثم يعكفون على كتابة مؤلفاتهم التي ذاع صيتها — أمكننا أن ندرك مبلغ جمال هذه الأبنية وأن نقدر ذلك الهدوء وأهمية تلك الموارد التي كان يهيئها ذلك الملاذ الرحب من رغد العيش لتلك النخبة الممتازة من العلماء المجدين فى عصر لم تكن الهيئات العلميه قد عرفت بعد .

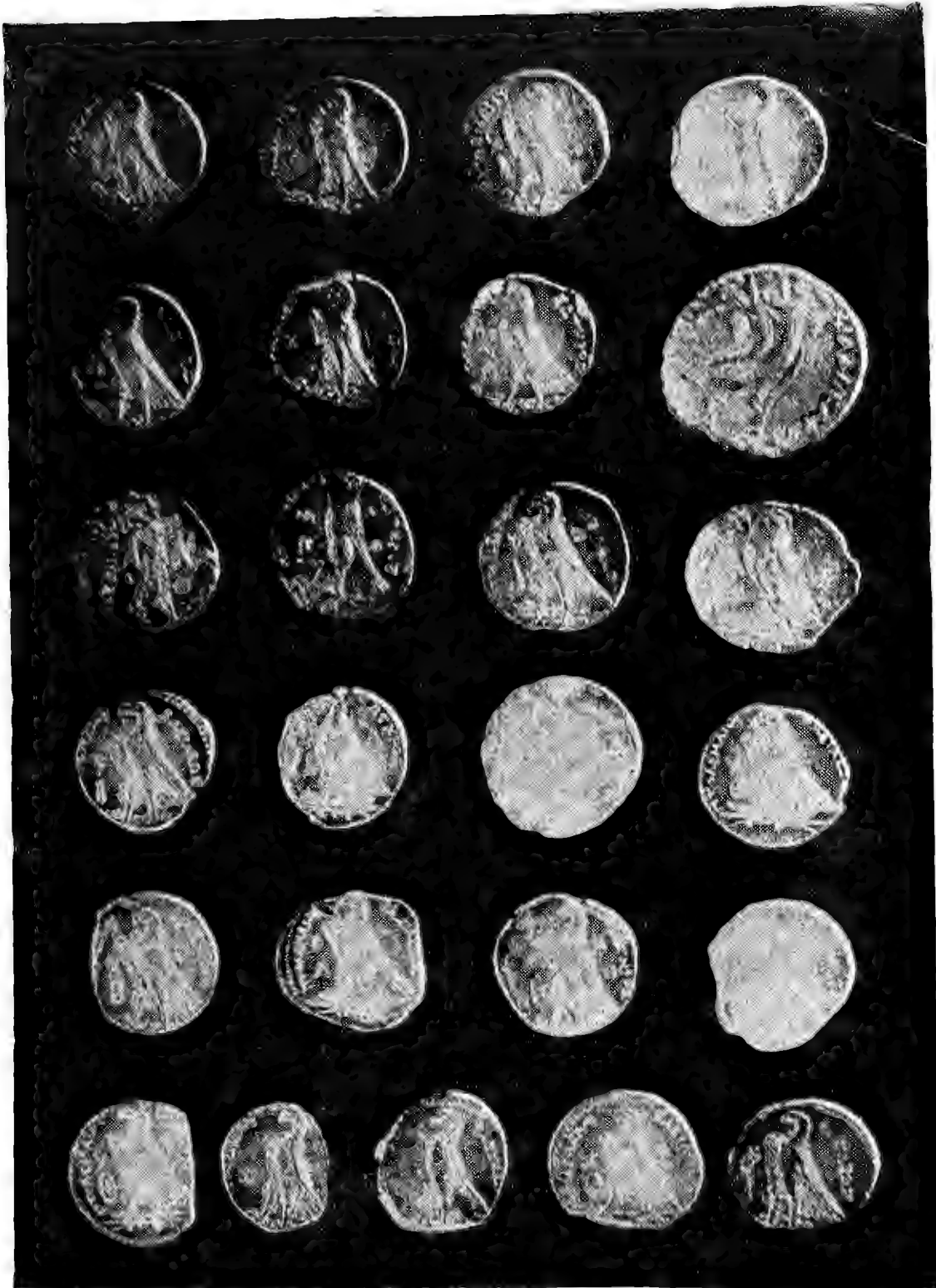
كانت إدارة دار الحكمة فى أيدي كاهن أعظم تغلب فيه الصفة الإدارية على الصفة العلبيه وكان اعضاء هذه الدار الحكيمه ويبلغ عددهم نحو مائة يستولون على رواتب من الملك كما كان لتلك الدار أوقاف تدر عليها الأموال وموارد قائمة على التبرعات والهبات والمصروفات التي كان يدفعها الراغبون فى تلقى التعليم ، ولما كان لأولئك العلماء مخصصات سنوية من قبل الملك فانهم كانوا يحرصون دائما على رضائه وحسن ظنه فيهم فكان له أن يستبقيهم أو يقصمهم حسبما يشاء . حقا انها لفكرة سامية تلك التي أوحى انشاء دار الحكمة ولكن كيانها كان متوقفا على تلك الارادة السامية وقد تكفى سورة غضب أو مجرد نزوة فتشرد تلك الهيئة ومع ذلك فقد عمرت مدة ستة قرون تقريبا ولم يكن السبب فى حلها أمير من أمراء البيت البطالى وانما اختفت وتوارت عن الابصار فى أثناء حرب أهلية نجم عنها تخريب الحى الملكى المسمى براخيوم (Brucheton) بأكله فى عهد الامبراطور أورليان .

الحركة الفكرية فى المدينة

وقدر صدر عن تلك الدار مؤلفات عالية القدر تناولت شتى الموضوعات فكانت نغز صدر عصر البطالمة وكسبت للاسكندرية شهرة عالمية فكانت هذه الدار بمثابة «أكاديمية» ولكن ليس لعضائها الحق فى اختيار زملائهم الذين يملأون ما يحدث من فراغ فى صفوفهم وكانت فى الوقت نفسه مدرسة



عملة يونانية ضربت في الاسكندرية



عملة يونانية ضربت في الاسكندرية



عملة تمثل مدينة الاسكندرية



عملة ضربت بالاسكندرية وعليها
رأس الامبراطور أنطونيوس يوس

يقوم أعضاؤها بالتعليم إلى جانب التأليف فكان لهؤلاء العلماء الاعلام تلاميذهم وحواريهم الذين يحضرون على أساتذتهم لتلقى أساليب البحث العلمى فكان بها أشهر علماء فقه اللغة والنحاة وكان من بينهم سوسيبوس (Sosibius) الاسبرطى ذو العقل الراجح .

وفى أزهى العصور التى شهدت هذه الدار وضعت المؤلفات الضخمة لأمثال زينودوتوس (Zenodotus) وكاليماكوس (Callimachus) وإيراتوستينيس (Eratosthenes) وثلاثتهم كانوا على التوالى أمناء للمكتبة وهم الذين توفروا على تنظيم الأدب الاغريقى وتبويبه وشرحه والتعليق عليه بالنقد ثم تولى الأمانة العامة للمكتبة من بعدهم أبولونيوس الرودى وإريستوفانيس البيزنطى ثم أريستارخوس (Aristarchus)، وان هذه الاسماء الضخمة لتمثل مجمل تاريخها لكل عصور الأدب السكندرى طوال فترة تقرب من قرن ونصف (٢٨٣ — ١٤٥ ق.م.) وان الرسائل والمقالات التى صنفها زينودوتوس عن هومر والشعر الذى دججه يراع الشاعر كاليماكوس من أناشيد ومراثى وملاحم ومقطوعات حكيمية ومؤلفاته فى فن المكتبات ثم شعر أبولونيوس الرودى الدال على علم واسع وأبحاث إراتستينيس فى التاريخ والجغرافيا وعلم الفلك ومختلف العلوم، هذا إلى الكشف التى تمت على يدى إريستوفانيس البيزنطى وإريستارخوس فى عالم النقد الأدبى — كل هذه ثمار اينعت وأخرجها علماء دار الحكمة وهى تكفى لتبرير وجود هذه الدار ولضمان شهرتها .

ولكن ألوان الأدب التى تميزت بها الاسكندرية لا يمكن أن تقارن بما أخرجها اليونان من الأدب فى العصور الكلاسيكية الزاهرة ومع ذلك كانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته . ومن المسلم به أن طابع الأدب السكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع فقد اظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والمعرفة مالم يستطع قراؤهم استساغته وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس تسمى بالأسباب (Aitia) وهى تلقى لنا بعض الضوء على طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالسا على مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة طريفة تدل على روح العصر .

وكان من آثار هذه النزعة فى هذا الشاعر أن جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذى لم يبرأ من التصنع ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ومع ذلك فإن أناشيد كاليماكوس وملاحم ابولونيوس الرودى تحتوى على مزايا حقيقية إذا قدرنا مافياها ولم نبحت عن صفات لم تجل بخاطر مؤلفيها — وأن تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الأثر فقدموا لنا الأناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتس (Theocritus) نوعا جديدا وأسلوبا فذا فى المعالجة لم يجاره فيه أحد فيما بعد ، وأن موضوع الحب الخيالى الذى عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستعملوه بقدر كاف فى ذلك العصر — كان مما أثر فى مجرى الأدب الأوروبى وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للأدب لم تقتصر على إنتاجهم الخاص منه فإن علماء دار الحكمة

وفقوا لاختراع فن النقد الأوربي وأن عملهم في هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فانتسبا مدينون لهم فيه بدين عظيم . وإذا كان من الثابت كما يؤخذ من أوراق البردى أن نصوص نفر من المؤلفين القدامى قد أصبحت في القرن الثالث قبل الميلاد محرفة بما أصابها من المسخ والتشويه فانه يرجع إلى علماء الاسكندرية وأدبائها كبر الفضل في أعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التي نقرأها اليوم ، ومن يدري فكم من نصوص الأدب الأغريقي الذي نستمتع بقراءته اليوم كانت تعبت به أيدي البلي والدثور وتعدوا عليه عوادي الزمن لولا ما قام به علماء الاسكندرية ونقصادها من غيرة وجهد في البحث عن أصول ونصوص كتب ذلك الأدب الأغريقي الخالد ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت في العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة في علمي التشريح والجراحة وبرزت نظائرها من المدارس الأخرى بمراحل كثيرة ، أما في علم الاحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله في العلوم الأخرى ، على ان دراسة علم الاحياء تقدمت فيها بلا شك بفضل حديقة الحيوان التي أسسها البطلمة ، وكان أكبر نصر أحرزته في ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا ، وفي الاسكندرية سبق أريستاركوس العالم كوبرنيكس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة أن الأرض تدور حول الشمس ، وقاس اراتسثينيس قطر الأرض ووصل في بحثه إلى رقم لا يختلف عن طوله الحقيقي إلا بمقدار خمسين ميلا ، وكتب أقليدس (Euclid) كتابه المسمى العناصر ومن بين الذين درسوا هناك كان ارشيميدس (Archimedes) وبطلميوس وهيرون (Heron) الذي كاد يخترع الآلة البخارية أو على الأقل قد وصفها ، ولكن الجود العجيب والخيول الذي اعتري الذكاء اليوناني قبل العصر المسيحي بقليل حال دون أن يوفق اليونان إلى معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل أن هذا الجود أدى بهم إلى إهمال العلوم التي كشفوها من قبل .

الحركة التجارية والصناعية في المدينة

وما انتصف القرن الثالث حتى صارت الاسكندرية أعظم مدينة ، وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً في العالم الأغريقي ، يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجارة والجنود والمشتغلون بالزراعة ، والسياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها . كل أولئك قصدوا إليها من كل حذب وصوب إما للاستقرار فيها وإما لمتابعة سيرهم إلى مصر الوسطى أو العليا ، حيث كانت البلاد بفضل الإصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التي نهجها الملوك قد تحول كثير من أراضيها البائرة إلى مزارع مثمرة . وتضاعفت غلات الأرض وثمراتها في كل مكان ، وكان إقليم الفيوم بصفة خاصة محط تجارب زراعية ، وطبقت فيه أحدث الأساليب في الزراعة والإنتاج فأثى بخير الثمرات ، وأصبح مضرب الأمثال في حسن الاستغلال والاستثمار وخاصة في أشجار النخيل والسكر واللبساتين . وكانت المنتجات الواردة من مختلف أنحاء العالم تری على أرصفة الاسكندرية التي مثلت دوراً هاماً في توزيع هذه المتاجر



تمثال صغير من الفخار المطلي بالجبس الملون (تاناجرا) ويمثل إحدى الصناعات الهامة
بالاسكندرية في العصر اليوناني الروماني

فكانت تتسلم من الخارج ما كانت مصر في حاجة إليه ، وفيها تتركز المتاجر ثم منها توزع إما إلى الجنوب أو إلى الشمال ، فالحاصل الإفريقية وكثير من محاصيل الشرق الأقصى التي كانت ترد عن طريق بلاد العرب والمحاصيل الآسيجية تنساب كلها إلى هذا المركز الرئيسي من غير انقطاع ، فالعاج وخشب الأبنوس والذهب والتوابل والخيول كانت ترد من أفريقيا ، ولم تنقطع عنها حاصلات الهند . وكان يباع الحرير الوارد من الصين في الاسكندرية في عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الإغريق الزيت والنبيذ والتين واللحوم الباردة والسمك المجفف والاسفنج . وكان القمح والشعير وما إليهما من غلات مصر يحمل في النيل في مراكب إلى سوق الغلال العظيمة ومخازنها في الاسكندرية ، وكان القمح وتجارة الحبوب أهم مصادر الإيرادات المصرية . ومثلت هذه التجارة دوراً في حياة مصر يشبه الدور الذي تمثله تجارة القطن في العصر الحديث . وكانت تصنع في المدينة نفسها مواد كثيرة وعلى الأخص الزجاج الذي أخذ في الانتشار في العالم عن طريق الاسكندرية وأصبحت له شهرة واسعة فوصل إلى بلاد الصين ، ثم كان يصنع بها السكتان وورق البردي ، وكان فن النقش على الخشب والعاج والمعادن فناً مشهوراً في المدينة ، فكانت السلع السكندرية في القرن الثالث تلتقي رواجاً عظيماً ويمكن مقارنتها بتلك التي كانت تصنع في باريس في القرن التاسع عشر . وكانت الحركة التجارية في الاسكندرية على أشدها ، وقامت فيها نقابات المصدرين الذين كانوا عنواناً على النشاط التجاري ، وقامت فيها دار السكة المشهورة بتقديم العون في تقديم العملات القديمة والأجنبية واستبدالها بأخرى جديدة (١) .

سكان المدينة

وكان سكان الاسكندرية ، ولا ريب ، يمثلون أنواعاً جنسية عديدة فتلتقي أخطابهم في شوارعها كما هو الحال في القاهرة في العصر الحديث وفي وثيقة بردية تحتوى على عقد للقيام برحلة تجارية إلى بلاد الصومال لشراء توابل نجد بين المتعاقدين والضامنين لهم رجالاً من أسبرطه وإيطاليا وقرطاجه وماسيليا (مارسيليا) ورجلاً يلح من اسمه انه روماني ، وفي عقد دين مؤرخ في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد نجد فارسياً من الحرس الملكي ورومانياً وثلاث رجال من برقة . ويكفي أن نذكر الحوار الذي جرى بين متشاحنين في أحد شوارع مدينة الاسكندرية وقد اصطف على جوانبها جمع من الناس لمشاهدة أحد المواكب في عصر بطليموس الثاني ورواه الشاعر ثيوكريتس في قصيدته الراعوية الخامسة عشر التي تصف أجنبياً ضاق بحديث امرأة ثرثرة من سيراكيوز تسمى « براكسينورا »

(١) تحتوى وثائق هذا العصر البطلمي على معلومات قيمة عن تلك الحركة التجارية والنشاط الاقتصادي الذي دب في البلاد فكان له صدها في الاسكندرية وسوقها التجارية (امبريوم) وتنوعت المكوس التي كانت تجبي على الصادرات والواردات وأفردت لها في السجلات صفحات برمتها فصلت أنواع الحاصلات وما قدر عليها .

(Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلاً « أيتها المرأتان ألا تنتهيان عن هذه الثثرة حتى لكأنكما زوج من الحمام ، ان سماع هذه اللهجة الدورية ذات اللكنة ، ثقيل على أذني ومضن لي حتى لينفذ صبري قبل نهايته » فأجابته « براكسينوا » « يا للعجب من أي أرض جاءنا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا وماذا تعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشتري عبيدك أولاً قبل أن تأمر وتنهى فيهم . اعلم ان من تتحدث لهن وتصدر اليهم الاوامر هن من اهل سيراكيوز ، واحب ان تعلم اننا من اصل كورنثي - ونحن كما تعلم نذهب بأبناء ملك كورنثه فنتكلم باللغة البليبونيزية واطن انه يحق للدوريين ان يتحدثوا باللهجة الدورية ! »

وكان في التقاء هذه الأجناس والشعوب بالطبع في هذه البوتقة لامتزاج كبير للثقافات والأفكار الدينية . وقد انتشرت من الاسكندرية عبادة إيزيس وسيرايس في كل أرجاء العالم اليوناني الروماني وفي الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة وفي هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوريانية والأرمنية واللغات الأخرى وكذلك الصورة اللاتينية القديمة ، وفي الاسكندرية استطاع فيلون (Philo) أن يكون مذهباً في علم المنطق وهو أمر هام للديانة المسيحية وعلم اللاهوت . وكانت الاسكندرية أحد المراكز الرئيسية في امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب الحرب للنزاع الأخير بين الوثنية والمسيحية ، ولا عجب في ذلك فانه في شوارع الاسكندرية كان يتشاحن عبادة سيرايس وعشتاروت والإله زيوس والإله جوبيتر وآلهة أخرى من اسيوية وافريقية .

ومعرفة تاريخ تلك المدينة التي كانت ميداناً لكثير من الأحداث الهامة أمر له أهميته وقدره ففي القرن الثالث قبل الميلاد ، إذ كانت قوة أسرة البطالمة على أشدها ، شاهدت الاسكندرية كثيراً من مظاهر النشاط السياسي والأحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب أبرز هذه المظاهر في ذلك العصر ومن بين الوثائق البردية ما يكشف عن خطاب بعث به وزير المالية المصرية في عهد الملك بطليموس فيلادلفوس الى وكيله زينون في فيلادلفيا بالفيوم ينيته فيه بقرب وصول رسل معتمدين من أرجوس في بلاد اليونان وسفراء من قبل ملك البسفور كيما يشاهدوا مناظر مصر وآثارها ويطلب الى زينون أن يسارع باعداد كل وسائل الراحة لهم وأن يعنى باطلاعهم على جميع نواحي التقدم في حياة الريف المصري . وهناك بعثة سياسية ثبتت انها أتت من روما في عهد هذا الملك إبان الحرب البونيه الاولى بين روما وقرطاجه تطلب العون منه ضد قرطاجه وأخرى أتت من الهند من قبل الامبراطور أسوكا (Asoka) البوذي الذي بعث برسله الى بطليموس الثاني ليقدموا اليه النصيح ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت فهل استجاب لنصحهم ؟ وهل وجد هؤلاء الرسل في قلب هذا المدك المفتون بالنساء وايشار المسرات وحب الترف والعظمة سامعاً أو مجيئاً ؟

الاسكندرية في الفترة الأخيرة من حكم البطالمة

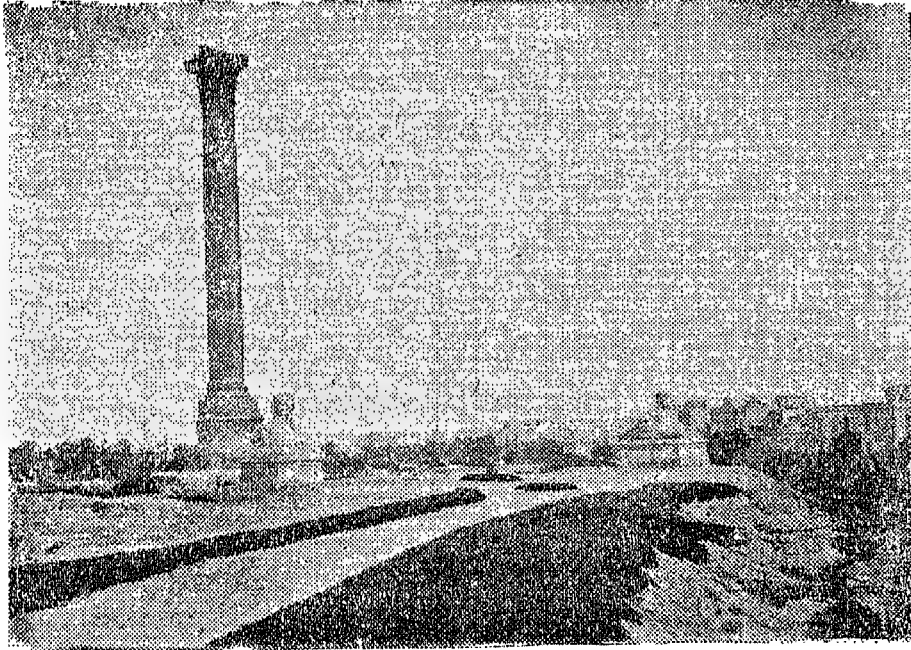
ولما اعتلى عرش مصر بطليموس الرابع (فيلوپاتور أو المحب لأبيه) الذى انهمك فى الملاذ والمجون والفحشاء فى الاسكندرية بدأ الحال يتغير فوقع أولا ذلك المنظر المحزن الذى صورده بلوتارك فى تاريخه وذلك أن الملك كايومينيس (Cleomenes) ملك اسبرطه وهو أسير مننى بالاسكندرية ضاق ذرعا بمنغافه فهرب من أسره المذهب تصحبه فئة قليلة من أتباعه وتوسل إلى أحرار المدينة لكي يساعده على استرداد حريته ولكن رجاءه لم يجد منهم أذنا مصغية فأثر الموت بطعنة من سيفه فخر صريعا .

وبعد موت فيلوپاتور حدثت اضطرابات فى الاسكندرية عندما ظهرت أمام الشعب حظية الملك الماكرة وأخوها بعد قتلها الملكة المحبوبة — يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون ، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم ولكن ثورتهم لم تنجح ثم ثار المقدونيون بالاسكندرية وعندئذ مزق الجرمان شر ممزق ، وتاريخ القرن الثانى قبل الميلاد هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلى بين أفراد الأسرة المالكة وقد فصله باسهاب المؤرخ بوليبيوس ، وفى الحروب الأهلية التى كانت تقع نتيجة لهذا الشقاق كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ، والسكندريون — ولاريب — قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر وفى عهد بطليموس الثامن الذى اشتهر رسميا باسم يورجيتيس الثانى (Euergetes II) والذى سماه المعجبون به من رعيته فسكون (Physkon) أى السمين وصل الملك إلى العرش مخضبا بالدماء فسمات الأحوال وانهمك الملك فى الملذات والشهوات وفى الأطعمة حتى أصبح بدينا لدرجة التشويه عاجزا عن التنقل والحركة فكان يخفى هذا العيب بارتداء ثوب كان يصل إلى كعبيه ويغطى زراعيه ولم يكن يغادر القصر مطلقا ماشيا على قدميه ومع ذلك فقد كان هذا الملك من أكثر الناس ثقافة وعلماء فكان متضلعا فى فقه اللغة وله مؤلفات فى النحو والتاريخ الطبيعى .

ولما نشبت الاضطرابات فى عهده قتل الملك فيها عددا كبيرا من الوطنيين ونشأ عن ذلك تغيير كبير فى أخلاق الشعب . وقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذى زار مصر فى هذا العصر فقال عن سكانها فى كتابه الرابع والثلاثين مايل « كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان — العنصر الوطنى (وهم المصريون) وهو نشيط ليذب متحضر والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سممة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل أن يحتفظوا بالجنود المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وكفائيتهم فى هذا العصر المتأخر من تاريخ البطالمة أن يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندرى وحتى هؤلاء لم يكرنوا متحضرين لنفس الأسباب ولو انهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يوناني الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونان » ويقول بوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى على يد الملك يورجيتيس الثانى وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة . وبلغ من فلك يورجيتيس

بسكان الاسكندرية حدا جعل قول الشاعر هومر في الاوديسيا يصدق عليها « إن الطريق إلى مصر طويل وعمر مخفوف بالمخاطر »

وما وافى القرن الأول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر مشرفاً على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيراً حال البلاد الخاضعة لحماية الرومان ثم ثار الشعب في وجه ملكه بطليموس أوليتيس (Auletes) الملقب بالزمار نسبة إلى الزمر وهو العمل المحبوب إلى قلبه فطرده إلى المنفى ولكن جابنيوس (Gabinus) حاكم الشام وقائد جند الرومان فيها عام ٥٥ ق.م. أعاده إلى عرشه بعد أن قبل منه مبلغاً طائلاً من المال واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأيد عرش الملك وفيما بعد ذلك بقليل أتى يوليوس قيصر إلى مصر سنة ٤٧ ق.م. مقتنياً أثر ممى المنهزم الفار ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباترة ابنة الملك أوليتيس وبهرته فتنها وذكأوها الخلاب وتطورت الأحوال كان فيها يوليوس قيصر يقف من أبناء الملك أوليتيس موقف الحكم وتخرجت الأمور حتى حاصره في القصر الملكي اتباع أخيه وزوجها ومرت بقيصر فترة كان فيها في أخطر المواقف، وفي أثناء القتال والشغب الذي وقع عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة بأضرار جسيمة وخاصة الأجزاء القسرية من القصر الملكي . .



عمود يممى (الشهير بعمود السوارى)

الأسكندرية في العهد الروماني

توارى يوليوس قيصر عن الانظار فجأة إثر مؤامرة دبرها له فريق من الجمهوريين المشفقين على الجمهورية الرومانية فقتلوه في منتصف مارس عام ٤٤ ق.م، فآل الامر من بعده إلى أنطونيوس، ثم اتفق أنطونيوس مع اكتافيوس على الانتقام من القتلة، وبعد أن تم لهما ذلك اقتسما مع ليبيدوس العالم الروماني فاخصص أنطونيوس بالشرق، وحضر إليه منظرًا وحاً كما بأمره، ومالبت أن اتصل بكليوباترة مستجوباً أول الامر ثم متمها وناصرأ على أعدائها وخصومها في مصر، ثم مالبت أن تنكر لروما وقلب لها ظهر المجن معولاً على تأليب الشرق ضدها ومتخذاً من كليوباترة حليفاً وزوجاً له .

وقد انتهى عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين أنطونيوس وكليوباترة؛ ولم يطل هذا الحكم فاسدل الستار على تلك القصة الرائعة بمأساة هزيمة أنطونيوس وانتصار اكتافيوس ثم انتحار أنطونيوس وكليوباترة من بعده بقليل وبذلك توارى المحبان كلاهما بطريقة روائية. فضم اكتافيوس مصر إلى الدولة الرومانية وسجل ذلك في وصيته المشهورة بأثر أنقرة (١) (الفصل السابع والعشرين) بقوله المأثور: «لقد ضمنت مصر إلى ساطان الشعب الروماني» وعكف اكتافيوس أغسطس على إصلاح شئون الاسكندرية فأصدر عفواً عاماً وأقر امتيازات المدينة؛ ويقول المؤرخ ديوكاسيوس أنه «أمر السكندريين بالاعولوا في تسير شئونهم السياسية على مجلس الشورى نظراً لشكوكه في أخلاق السكندريين» ولقد أول البعض هذا الأمر بأنه إلغاء لمجلس الشورى الذي كان قائماً بالفعل، وليس حتماً أن يكون الأمر كذلك إذ يحتمل أن يكون المجلس قد عطل قبل حكم أغسطس بزمان طويل؛ ومهما يكن من شيء فإن الحكم الروماني لم يكن بحال من الأحوال محبباً إلى قلوب السكندريين الذين لم يدعوا تماماً إلى هذا النظام الجديد الذي فقدت فيه مدينتهم مركزها كعاصمة لدولة مستقلة واستمروا ينظرون إلى روما كمدينة حديثة العهد بالملك، فكانوا يخافون الحكومة القائمة ويضيقون بها ذرعاً. ولم يمنع وجود حامية رومانية في معسكر كبير في شرق المدينة في نيكوبوليس (Nicopolis) قرب بولكلي ومصطفى باشا من حدوث الاضطرابات المستمرة. ولقد ظهر ذلك الروح العدائي القومي في بعض من النصوص المكتوبة من ذلك العصر وتشتمل هذه النصوص على تقارير عن قضايا نظرت في روما وهي تتعلق بموظفين سكندريين وقد صيغت في أسلوب الأوامر الرسمية ولعلها اشتقت منها في بعض الأجزاء وقد كتبت بأسلوب ملووء بالدعاية التي استغرت شعور السكندريين؛ وللشبه الذي بينها وبين قوائم أسماء الشهداء المسيحيين وتراجهم سميت « أعمال الشهداء الوثنيين ». ولما كان منشأ هذه الاضطرابات

(١) وأثر أنقرة هذا سجل دون فيه اكتافيوس أغسطس أعماله وحروبه وما أداه للرومان من خدمات وقد نقش على حوائط المعابد وكشف عن صورة منه في معبد بأنقرة .

خلاف يقوم في الغالب بين اليهود والسكندريين كانت هذه الكتابات ذات طابع عدائي نحوهم ومع ذلك كان العدو الأول للسكندريين هو روما .

العلاقة بين السكندريين واليهود

ولم يكن اليهود الذين منعتهم تقاليدهم الدينية من الاشتراك في حياة المدينة العادية محبوبين . والعلاقة بين اليهود والسكندريين تمثل صفحة هامة في تاريخ المدينة وكانت نيران العداء بين الطرفين تتأجج بسبب البغضاء الناجمة عن اختلاف الجنس والعداء للسامية وكان يهود الاسكندرية من أوائل المؤسسين للمدينة وزادت أعدادهم فاقتصروا بحى عينه لهم أحد ملوك البطلمة الأولين ولا ندرى من هو على سبيل التحقيق وكان حيهم يمتد على شاطئ البحر الى الشرق من القصر الماسكى وقد أشار الكتاب الحديثون الى حى الداتا هذا على أنه « الجيتو » ولكن استعمال هذا الاصطلاح في العصور الوسطى — ويتضمن معنى القهر والاصرار على عزل اليهود عن غيرهم — مضلل نظراً الى أنه لم يكن هناك إكراه في الاسكندرية على أولئك اليهود بأن يسكنوا حياً بمفردهم وقد زادت أعداد اليهود على توالى الزمن وملئوا حياً آخر وانشروا في الأجزاء الأخرى من المدينة حيث أقيمت في كل حى منها بيعهم وقد أثير جدل شديد حول تمتع اليهود بالحرية المدنية واعتبارهم ضمن هيئة المواطنين الاحرار في المدينة وقد ذكر المؤرخان اليهوديان، يوسف وفيلون، انهم تمتعوا بهذه الحرية ولسنا ندرى مبلغ الصحة في ذلك ولا الدوافع التي كان المؤرخ يوسف يرمى من وراءها بذلك وجرى كثيرون من المؤرخين الحديثين وراءهما ونادوا بهذا الرأي ولكن الحقيقة غير ذلك فاليهود لم يتمتعوا بالحرية المدنية لمدينة الاسكندرية كمجموعة بل اقتصر الامر على أفراد منهم كانوا ينجحون ذلك من وقت لآخر؛ على انهم كانوا يتمتعون ببعض الحقوق التي كان يتمتع بها المواطنون الاحرار وكانوا يعرفون بوجه عام بالسكندريين (Alexandreis) ويتمتعون بسلطات واسعة من الحكم الذاتي كانت تفوق في بعض النواحي السلطات التي يتمتع بها هيئة المواطنين الاحرار وبخاصة في العصور المتأخرة عندما سلبت المدينة حقها في أن يكون لها مجلس شورى ، ويبدو أنه كان بين اليهود طبقتان إحداهما عليا والأخرى دنيا . وكان يصرف أمور هذه الهيئة في أول الأمر المسنون ثم بعد ذلك كان يتولاها موظف يسمى جينارك (Genarch) أو اثنارك (Ethnarch) وفي العصور الرومانية تألف لهم مجلس يعرف بالجيروسيا (Gerousia) وبلغ عدد أعضائه واحداً وسبعين . وقد عرف كثير من يهود الاسكندرية بالثراء الكبير وكان بعضهم من أصحاب الملايين ، وأشهرهم شقيق الكاتب المشهور «فيلون» والذي كان «روتشلد» عصره ، وبفضل أمثال هؤلاء الرجال أكتسبت الجالية اليهودية سمعة الثراء بوجه عام ، ولو ان هذا القول لا يصدق عليهم جميعاً؛ وبعض اليهود كان يقوم بأعمال جباية الضرائب، وكثيرون خدموا في الجندية وفي الحاميات كما اشتغل غيرهم بالزراعة ، وذكرت الوثائق منهم صمويل واسماعيل ويهوذا . أما يهود الاسكندرية فيغلب عليهم الاشتغال بالتجارة وأعمال الصناعة والحرف فكان منهم صائغون وحدادون

وغير ذلك ، وقد اشتهرت الجالية اليهودية بجدها وغنى بعض أفرادها ، ومثلت دوراً مهماً في تاريخ الاسكندرية تعدى النواحي الاقتصادية إلى شتى المناحي السياسية والاجتماعية والأدبية فقد ساهموا في الترجمة السبعينية للتوراة ، وكان من بين صفوفهم عدد من المؤلفين والكتاب من أمثال فيلون الذى كانت تصانيفه ذات أهمية فائقة لحاول أن يكسو الأفكار الدينية اليهودية فى ثوب يروق للعقل الاغريقى .

أما العلاقة بين اليهود وبين جيرانهم من الاغريق والمصريين المتأخرين فانها كانت مشوبة بطابع العداء والغيرة والبغضاء أحيانا ولا يوجد أى دليل يثبت وجود الكراهية للسامية بمعناها الدينى والجنسى فى العصر البطلمى وليس معنى هذا أن تلك الكراهية الجنسية لم يكن لها وجود. وكان موقف اليهود من الحكومة القائمة فى عهد البطالمة لا غبار عليه وكانوا عوناً للحكومة بفضل نشاطهم وجدهم إذ أصبحوا عنصراً مهماً من الناحية الاقتصادية أما موقفهم من إخوانهم ومواطنيهم فى الاسكندرية فلم يكن رائده الوفاق والمحبة الخالصة فعقائدهم الدينية جعلتهم فى واد آخر عن حياة المدينة الاغريقية ومع ذلك فانهم كانوا يحظون بعطف البيت المالك ويتمتعون ببعض الامتيازات التى كانت للاحرار

وضاعف فى كراهية الاسكندرانيين لهم انه عندما زحف جابينيوس سنة ٥٥ ق.م. على رأس جيش من الرومان على مصر لنصرة بطليموس أوليتيس المخلوع وردة إلى عرشه المسلوب فتحت له الحماية اليهودية فى الفرما أبوابها وهى مفتاح الدلتا من الشرق وتكررت هذه الخيانة فى موقف آخر عندما حاصر يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. فى القصر الملكى بالاسكندرية ومعه كايوباتره وضيق عليه الثوار من أهل الاسكندرية الخناق وعندئذ هبت قوة يهودية فى هليوبوليس لنصرته يؤازرها اخوانهم وبنو عشيرتهم فى ممفيس فارتكبوا خيانة أخرى بفتح الطريق أمام قوة زاحفة من الشرق يقودها ميثريداتيس (Mithradates) لنصرة قيصر وفك حصاره وأخيراً عندما غلب أنطونيوس على أمره وتوارى هو وكليوباتره عن الابصار سارع اليهود إلى خطب وداكتافىوس وتقديم الولاء له فاعترف لهم بجميع امتيازاتهم وذلك فى نفس الوقت الذى تنكر فيه للاسكندرانيين ورفض مطالبهم فلم يسمح لهم بإعادة مجلس الشورى الذى ألغوا فى طليسه منسه ، وفى هذه اللحظة ساءت العلاقات بين اليهود والاسكندرانيين . حقا ان الاسكندرانيين كثيراً ما عصوا ملوك البطالمة ولكن ساءهم أن يروا عاصيتهم تصبح بين عشية وضحاها عاصمة محلية بعدد أن كانت مقراً لحكم ملوكهم الذين أقاموا بين ظهرانهم فاستشاطوا غيظاً ووقفوا من روما موقف المعارض لحكمهم العامل على تقويض أركانه فى السر دائماً والعلانية أحيانا خشية بطش روما وجبروتها .

وهكذا كان اليهود الذين منعهم تقاليدهم الدينية من الاشتراك فى حياة المدينة العادية مكروهين منبوذين وزاد فى كراهية الناس لهم أنهم تخلوا عن الأسرة البطلمية ومالوا الرومان وصالحوهم على حساب ملوك البطالمة ولم يقنعوا بما حصلوا عليه من مزايا بل عملوا للحصول على امتيازات أخرى جديدة وكانوا شديدي الرغبة فى التمتع بالحرية المدنية الكاملة لمدينة الاسكندرية وبلغ من طمعهم أن طالبوا بأن يسمح لهم بالاشتراك فى الألعاب العامة على الرغم من أن المتدينين منهم كانوا ينظرون

إلى هذه الألعاب الرياضية، التي كان يباشرها اليونان ويظهر فيها المتبارون عراة، بعين الكراهية والمقت؛ وقد أخذ هذا العداء المتبادل يشتد ويقوى في السنين الأولى من القرن الأول الميلادي؛ وفي حكم الامبراطور جايوس (Gaius) الذي لقب على سبيل التهمك باسم كاليجولا (Caligula) هبت زوبعة الخلاف بين السكندريين واليهود وذلك أن أجربا (Agrippa) اليهودي حفيد الملك هيرود (Herod) كان متلافا شديدا للتبذير وكان صديق كاليجولا ونديمه فولاه ملكا على جزء من أملاك أجداده في فلسطين فذهب إليها تصحبه كتائب من الجنود تحلبهم أثواب زاهية أرجوانية اللون مكسوة بالذهب ومن حوله حرس خاص من الجنود المتحلبين بأحسن الثياب وأغرها وفي طريقه إلى مقر ملكه مر بالاسكندرية وكان قد ظهر في زيارته السابقة المدينة بمظهر المفلس الهارب من وجه دائنيه، وكان منظر هذا المفلس، يختال بين حرسه الخاص وسط شوارع المدينة واليهود يحبونه من حوله، يدعو إلى سخرية دهماء الاسكندرية السريعي التأثر فيبحثوا عن رجل مشهور بالبله والغفلة وألبسوه ملابس الملك على سبيل الاستهزاء وصحبوه إلى ساحة «الجننازيوم» وأخذوا يحبونه صائحين مارين ! مارين !! وهي كلمة سورية معناها ملك السخرية والطنز.

كان حفلا رائعا تجلى فيه العبث ولكن لما انتهى، تذكر المتهمكون والساخرون أن أجربا هذا الذي أشبعوه سخرية كان الصديق الحميم للامبراطور وأنه من سوء الاختيار وقصر النظر أن يعرض الانسان بسيد العالم الروماني ولكن بدرت لهم طريقة رائعة يتخلصون بها من الخطر المحدق بهم — وذلك أن كاليجولا هذا كان قد آله وكان على رعاياه أن يعبدوه ولكن يصلح الدهماء ما بينهم وبينه طلبوا إلى اليهود إطاعة أوامر الامبراطور فرفضوا ذلك ولم يفعل حاكم مصر الروماني الذي كان الامبراطور ساخطا عليه من قبل — أي شىء لمعلمهم على عبادته إذ خشي عاقبة التدخل لخرج الموقف وعندئذ طالب العامة بضرورة وضع تماثيل الامبراطور في البيع، وقصر اليهود الذين كانت أعدادهم قد زادت لدرجة فاحشة وانتشروا في أرجاء المدينة؛ ولما قاوم اليهود هذه الرغبة واستماتوا في ذلك وقعت معركة حامية خربت في أثناءها بضع بيع وانتهكت حرمة البعض الآخر وسلبت ولما تدنس أيدي العامة باراقة الدماء افلت زمامهم ووقعت كل الاضطهادات والفظائع المألوفة وانتهكت الحرمات وأشبع اليهود حتى النساء ضربا مبرحا حتى مات كثيرون وعذب آخرون باحراقهم بالنار وسلبت أملاكهم وقد استمرت هذه الفظائع بضعة أيام تلاها إيفاد البعثة اليهودية المشهورة إلى الامبراطور وقد وصف فيلون، أحد أعضاء هذه البعثة، أعمالها وصفاء رائعا ولكنها لم تجد الحل المرضي في روما فبقيت البيع مغالقة حتى اعتلى كلوديوس (Claudius) عرش الامبراطورية وكان كذلك صديقا لاجربا فعجل باصدار قرار يثبت فيه امتيازات اليهود ثم ثار اليهود بدورهم على من ظلمهم ووقعت الفتنة بين اليهود والسكندريين ثانية فاستمات الطرفان وتطلبت من السلطات الرومانية جهودا كبيرة كيما تطفي نيرانها وقد أشار الامبراطور كلوديوس إلى هذا الأمر في رسالة له إلى أهل الاسكندرية ردا على وفد سياسي كانوا قد أرسلوه لتخيطه وفي رسالته هذه كتب يحث الطرفين على الاخلاص إلى

السكينة والمحافظة على السلم في المستقبل ويهدد المعتدى في أى اضطراب جديد بأشد العقاب وانكاه فخر اليهود أحداث الفتن والاضطرابات البطالبة بامتيازات أخرى مهددا بقوله « وإلا انتقمتم منهم بكل الوسائل إذ أنهم يثيرون فتنة عامة في كل أرجاء العالم » ويظهر أن أهل الاسكندرية كانوا قد طلبوا في هذه المناسبة من الامبراطور أن يعيد اليهم مجلس الشورى وقد تبين من هذه الرسالة أن الامبراطور أهمل هذه الرغبة بحالتها على ما يسمى باللجنة الامبراطورية لبحثها .

لم يزد تتابع هذه الحوادث ولاء السكندريين للامبراطور وإنما زاد عداؤهم لليهود أكثر مما كان عليه من قبل فكانت تقع حوادث الاصطدام باستمرار بين العنصرين في السنين التالية ، وفي عهد نيرون بعد قيام ثورة بلاد يهوذا بقليل وقعت موقعة استيأس فيها الجانبان وكان اليهود في هذه المرة هم البادئين بالعدوان حتى قتل خمسون ألفاً منهم على ما قيل — قبل أن يتمكن الحاكم الروماني من القضاء على الفتنة ، ولعل من الشائق أن نقبس قطعة من الأدب القوي لذلك العصر تصف محاكمة وقعت في روما أمام الامبراطور كلوديوس وهي تبين تماماً روح العصبية المشوب بالتحدى الظاهر في أهل الاسكندرية، وكان ايسيدور (Isidorus) رئيس الندوة الثقافية (Gymnasium) فيها قد رفع قضية على أجربا الثاني فلما سأله الامبراطور كلوديوس قيصر « لقد قتلت كثيرين من أصدقائي يا ايسيدور .

ايسيدور : لقد اطعت أوامر الامبراطور السابق ، أذكر لى اسم من شئت أبين لك وجه اتهامه كلوديوس قيصر : حقا انك يا ايسيدور ابن راقصة .

ايسيدور : لست عبداً ولا ابن راقصة وإنما أنا رئيس الندوة الثقافية الشهيرة بمدينة الاسكندرية أما أنت فانك مولود لغير رشدة (يعنى ابن سفاح) من يهودية مشردة تسمى شالومة

وعند ذلك قال « لامبون » لايسيدور ، حسنا ، ماذا نصنع إذا كنا قد أسلنا الأمر إلى ملك معتوه .

فلا غرو إذا علمنا من نص أدبي آخر أن الامبراطور قد أصدر حكمه بقتل كل من لامبون وايسيدور .

وقد سمعنا عن حدوث فتنة أخرى في عهد الامبراطور تراجان وفي عهده كذلك امتحنت الاسكندرية بضروب من المحن أقسى وأشد حين بدأت ثورة اليهود الكبرى في برقة ثم امتدت الى مصر وقبرص ولما خلت الاسكندرية من بعض حاميتها بسبب سحب بعض الفرق للحرب مع الفرس قل الشعب بالاسكندرية ثم لما عادت القوات الرومانية من برقة منهزمة أمام قوات اليهود فيها، صبا جام غضبهم على يهود الاسكندرية ثم أخذت الكراهية الشديدة التي كانت تتأجج في الصدور منذ قرن بأجمعه تعمل عملها فتخرب جزء كبير من المدينة في الاضطرابات التي وقعت وتهدم الحى اليهودى والبيعة الكبرى ، وأحرق اليهود معبد أليونان ودمروا بعض الأبنية الأخرى دماراً شديداً ، وبعد

أن انتهت هذه التسورة استمر الشعب والفتن بالاسكندرية بين الجانبين . وكان الاسكندريون الذين ساءم بعض أوامر الامبراطور أخذوا يعبرون عن سخطهم بالتهكم على الامبراطور الجديد هادريان وفشا ذلك في العامة حتى أصبحوا يترنمون بهذه التهكمات في الشوارع ، فأدى ذلك إلى القبض على الكثيرين لأن الرومان على ما فيهم من صلابة وعناد لم ترقهم السخرية والدعابة التي فشلت في الاسكندريين . وقد أعيد بناء الجزء الأكبر من المدينة ، وراع اليونانيون وزاد في حنقهم أن عاد اليهود إلى سكنى أحيائهم القديمة ، وبعد ذلك بسنين قلائل وقع بين المصريين خلاف ديني نشأ عنه فتن واضطرابات . ولكن زيارة الامبراطور هادريان في سنة ١٣٠ ق . م . كان لها أثرها الطيب في تهدئة الأحوال . وانقضت فترة طويلة من الزمان بعد ذلك أخذ شعب الاسكندرية السريع التأثر إلى السكون والهدوء .

الشعب الاسكندري في نظر بعض الكتاب

ولدينا طائفة من أوصاف الشعب الاسكندري في ذلك العصر (عصر تراجان) ومنها نصيحة الفيلسوف الوثني السفسطاني المسمى ديوكريسوستوم (Dio Chrysostom) ويكنى بذي الفم اللؤلؤي أو الذهبي وفيها يصورهم في كثير من الصديق والاخلاص شعباً لاهياً مرحاً مفتوناً بالموسيقى إلى أبعد حد ، ويؤيد ذلك ما جاء على أقلام كتاب آخرين أشاروا إلى ميلهم إلى المرح والطرب . وما جاء في تلك النصيحة :

« .. أنه ليس من السهل على أجنبي أن يطبق الضوضاء والصخب الذين يحدثهما هذا الجمع الهائل أو عشرات الألوف من أهل الاسكندرية ما لم يكن قد تزود بأرغن وأغنية ؛ لأن هذا هو الدواء لصخب عامتكم وجموعكم الغفيرة ... وأنا نفسي لو كنت أعرف الموسيقى لما حضرت إليكم إلا ومعى أنشودة ... »

وفي مناسبة أخرى يقول :

« .. أنكم تصرفون كل وقتكم في مرح غير مجد ، ولا تعوزكم الحيلة لإيجاد مجال للهو والسرور والضحك ، وقد تعودتم أن تسمعوا السخرية منكم والتهكم عليكم ، وفيكم كثيرين يستطيعون أن أن يقدموا لكم النكات ، ولكني أرى بكم حاجة ماسة إلى الجد » .

وقد جاءت بعض هذه الأوصاف للاسكندريين في مناسبة أخرى أذ يقول الكاتب « ... ولا نجد فيها رئيساً لبيعة اليهود ولا سامرياً ولا قسيساً مسيحياً الا وهو يشتغل بالتنجيم والعرافة أوزعيم ثورة ؛ وشعب الاسكندرية محب للشغب إلى أبعد حد وهو يعيش في مدينة غنية ثرية حتى لا نجد أحداً أقدر استولى عليه الكسل فالبعض يشتغلون بصنع الزجاج والآخرين يعملون في صناعة البردي والبعض ينسجون الكتان وكل إنسان يحترف عملاً أو يتخذ له فناً حتى الذين أصيبوا بالرثية (أى داء النقرس) لهم عمل تقوى طاقتهم عليه وحتى المكفوفون والذين أصيبوا بشلل في أحد ذراعيهم يجدون عملاً يناسبهم ؛ ومعبودهم الوحيد هو المال فالمسيحيون واليهود يعبدون المال وكلهم في ذلك سواء »

وقد صور القديس كليمان (Saini. Clement) المجتمع السكندري تصويرا رائعا تشوبه بلا ريب روح الوعظ والارشاد فندد بالاختطاء الجسيمة والرزائل التي كان المسيحيون أنفسهم شركاء فيها وهاجم أسراف النساء وغرورهن ولامهن على تبرجهن وزينتهن . ولا يجب أن يتسرب إلى الذهن ان الاسكندرية كانت منصرفة كلية إلى اللهو والمجون فانه في نفس هذا الوقت كان القديس كليمان يؤسس مدرسته العظيمة لدارسة الشؤون الدينية ومن بين الاسماء التي برزت اسم أوريجن (Origen) وهو أعمق المفكرين المسيحيين وكان لهذه المدرسة تأثير عظيم على تطور الفكر في الكنيسة وفي أثناء الاضطهادات في أواخر القرن الثالث لقي كثير من المسيحيين والاساقفة أهوالا وعنتا شديدا ، وفي القرن الرابع أخذت الديانة المسيحية تحتل المكان الأول .

وإلى قبيل الفتح الاسلامي كانت الاسكندرية لاتزال مركزا تجاريا هاما ولكن أيامها الباقية كانت معدودات فما لبثت بعد فتح العرب مصر ونقلهم العاصمة إلى القسطنطينية أن انحط شأنها على الرغم من احتفاظها ببعض الأهمية كمركز بحري وأخذت أبنيتها الجميلة تختفي واتخذت محجراً لأخذ الاحجار فتوارت حضارة تلك المدينة التي كان يفخر اهلها بتسميتها عاصمة العالم بأسره وأصبحنا لانجد من آثارها الباقية الا اللطيف يحكي في صمت رهيب عظمة تلك المدينة الجميلة وتاريخها المجيد .

زكى على